بدوي محمود الشيخ

نحو حركة إسلامية راشدة

قراءة من وحي تجربة العمل الإسلامي المعاصر

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .. (الحشر : ١٠)

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

أما بعد ..

فلقد عانت الدعوة الإسلامية قرابة القرن من الزمان انحسارات عدة ومتعاقبة، عكست حال الأمة وما يموج بها من تيّارات ، وما يعصف بها من تقلبات .

ولأن الدعوة الإسلامية ليست كياناً مادياً منفصل ، ولكنها حركة بث وإطار معنوى عقدى ، يتأثر وجوده بقوة اعتناقها ، وحجم التمثيل الكيفى لها على أرض الواقع ، ومن ثَمّ معدل انتشارها أفقياً ورأسياً ....

فلقد كان هذا المعدل شاهداً قوياً على حال أمة وما دبٌ فيها من ضعف وهوان.

وحركة الإسلام العظيم ، منذ تفجرت شمسه فأضاءت العالم رحمة وعدلاً ، قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان ، اجتازت طريقها إلى العالمين عبر مرحلتين :

الأولى : مرحلة ضعف وابتلاء ، وقد عُرفت بمرحلة الدعوة .

والثانية : مرحلة تمكين وفتح ، أى مرحلة الدولة .

ولم تكن مرحلة الدولة ، إيذاناً بانتهاء مرحلة الدعوة ، وإنما إيذاناً بانتقال مرحلة الدعوة من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين ، حيث تُسخّر كل إمكانيات الدولة - بالمفهوم المعاصر - لنشر الرسالة والدعوة .

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) .

---

(١) الحج : ٤١

واستمرت مسيرة الدعوة فى الدولة – أو الخلافة – الإسلامية طيلة هذه الفترة ، تنتعش وتتمدد شرقاً وغرباً ، تفتح البلاد وتنير قلوب العباد ، وأمِنَتْ بالدعوة طيلة هذه الفترة بظل السلطان ، وإن اختلفت قوة الدعوة من سلطان لآخر ، ولكن ظلت تتمتع بدفع العلماء والمجددون على رأس كل قرن كلما يدب ضعفاً ، أو ينشأ خلل .

وهكذا اعتمدت مسيرة الدعوة وقوة دفعها على عاملين :

الأول : قوة السلطان وهيبة الدولة ، أو الخلافة من ناحية ، وقوة اهتمامه بنشر الدعوة وتطبيقها على أرض الواقع ، ومغالبة شهوات المُلك والهوى من ناحية أخرى .

الثانى : دور العلماء وامتلاكهم ناصية التوجيه والإرشاد ، ونصح الراعى والرعية ، وإثراء العلم والفكر ، وتفاعلهم مع الأخطار التى تحدق بالأمة من داخلها أو من خارجها ، ووقوفهم أمام تيارات الابتداع والعبثية ، وتنقية البيئة العلمية من السفسطة ، وشغل العامة بالخلافات المذهبية وسفاسف الأمور ، ومن ثَمَّ قوة امتلاكهم لميراث النبوة ، وارتفاعهم لمستوى المسئولية .

ويوم أن اهتزت هذه الأدوار ، فضعفت همة السلطان ، وتراجع دور العلماء ، وهان أمر الدين عليهما وعلى الأمة ، دبَّ الضعف فى الأمة جميعاً ، وأصبحت غنيمة سهلة للطامعين .

وهذا مكمن السر وراء ما سجلته مسيرة الدعوة الإسلامية من تقهقر قرابة قرن من الزمان من انحسارات ، يبشر الأول بما يليه وهكذا ، فلقد كان أول انحسار أصيبت به الدعوة ، هو انحسار ظل السلطان ، وبعد أن دبَّ الضعف فى الخلافة الإسلامية إلى أن أذِن بسقوطها .. ، وليصبح المسلمون هلكى قد أصابهم اليتم والخزيان ، وما أصابهم فى الدين لا يعدله أية مصيبة ، فكان سقوط الخلافة باباً جاءت منه كل الشرور ، وأصبحت الدعوة الإسلامية فى موطن الدفاع ، وتحوّلت من موطن القوة إلى الاستضعاف .

ثم جاء الانحسار الثانى ، وهو تراجع دور العلماء عن قيادة الأمة فى استعادة ما فُقد ، وفى الخروج من الأزمة ، وبعد أن كان العلماء ملاذ الجماهير ، وقد أسلسوا لهم القياد فى كل مدلهمة أصابت الأمة فى تاريخها الطويل ، ولم يكونوا ليتخاذلوا أو يترددوا . يأتى ذلك القرن ليسجل لهم التراجع عن هذا الدور ، ولقد بدأ ينحسر تدريجياً إلى أن اختفى بسقوط الخلافة ، وليتسلم قيادة الأمة – لأول مرة فى تاريخها – رجال أقل ما يقال فيهم : إنهم لم تكن لديهم الغيرة على الدين أو الدعوة ، بل كانوا على العكس من ذلك ، حملة راية الغازى فى الدعوة لفصل الدين عن الدولة ونفى الدين عن السياسة . ولقد كان بإمكان العلماء أن يعلنوها صيحة للجهاد ، أو بإيقاظ الهمة ، أو بصنع مشروع ولو طويل المدى ، يشرفون على إنفاذه ، من أجل منع مزيد من الانهيار والتحلل ، وإفساد مفعول التيارات الوافدة . أبداً لم يكن منهم من ذلك شئ ...، وقد كان لهم من سلطان الفتوى وإكبار الجماهير .

ولقد ظل هذا الدور ينحسر شيئاً ، فشيئاً ، إلى أن انزوى فى زوايا الوعظ الميت ، وتجاهل الواقع ، والإفتاء المشبوه ، وهكذا تحوّل الدور ، وتحوّل من الهروب من المسئولية إلى الوقوع فى الفتنة .

ولا يعنى ذلك التعميم على جميع العلماء ، بل ظل نفر منهم على العهد ، يسددون ويقاربون ، أوفياء لرسالتهم ، ولكن الحديث عن مجمل الدور والمسئولية الجَماعية .

وخروج رجل عادى من الشعب ، قد درس فى جامعة مدنية ، هأباً ثائراً للغيرة الدينية ، مغتماً للحال التى وصلت إليها الأمة ، وقد حال الهم بينه وبين النوم والسكون ، ثم يكون لذلك الرجل بعد ذلك شأن فى إيجاد دور إسلامى ، فى الخروج بالأمة من نكبتها ، كان ذلك الحدث تحولاً كبيراً وخطيراً فى تسجيل تراجع العلماء ودور ذلك التراجع فى تهميش رسالة الدعوة .

والذى يستعيد لقاء الرجل [1] بنفر من علماء تلك الفترة ، وبعد أن لجأ إليهم

(١) مذكرات الدعوة والداعية : الشيخ حسن البنا .

مذكراً إياهم بمسئولياتهم ، راجياً منهم عمل أى شئ يكون على مستوى الخَطْب الذى أصاب الأمة ، ثم يرى كيف كان التجاوب رتيباً وبطيئاً ، يحس بنقلة خطيرة فى تاريخ الإسلام ، لا تقل عن فتنة انتقال الخلافة إلى مُلْك عضوض ، ومن أثر معركة الجمل ، وفتنة عثمان ، وعلىّ ومعاوية ، وسقوط الخلافة . ماذا يعنى انتقال قيادة حركة الإسلام إلى عامة المثقفين والشباب ، وإلى المتحمسين ممن يكونوا على غير التخصص ؟!

وإذا كانت تلك النقلة قد اكتسبت حماس الشباب ، وتعميم المسئولية الدينية، فلقد خسرت الدفع المعنوى ، والثقل التوجيهى والإرشاد العلمى الشرعى ، والائتلاف الجماهيرى ، لحركة الدعوة ، ولقد ظل هذا الأثر يلقى بظلاله الثقيلة على الجهود البديلة ، فضلاً عن أنه أوجد الهوة بين العلماء وبين العاملين للإسلام من عامة الشعب .

ولم يكن ما سبق هو آخر الانحسارات بل تتالت وتعاقبت ، ولتسفر عن أخطر نتيجة وأخطر انحسار ، ألا وهو : قيام نظم علمانية ، كان لها دور فى تقليص دور الدين وتنظيم وتقنين عملية إبعاده عن الحياة والشارع ، وإنفاذ المشروع الغربى البديل . وليعقب ذلك انحسار أخير ، ألا وهو : تولى تلك النظم ، دور الغرب فى معركتها مع دعاة الحق ، والمبتدرين للدفاع عن عراه ، والمنتصرين لعودته للشارع والحياة ، ويسجل التاريخ بعد ذلك معركة غير متكافئة ، يذهب ضحيتها المئات بل والألوف من شباب الإسلام ما زال يدور رحاها على أكثر من صعيد وبتواص عجيب .

ولأن رموز الحركة الإسلامية [١] المنتفضة ، أصبحت رموزاً للدعوة الإسلامية بل واقترن مستقبل الدعوة الإسلامية – إلى مدى بعيد – بوضعية وصوابية

(١) المقصود بها فى هذا البحث الحركة الإسلامية عامة ، والتجربة المصرية على وجه الخصوص .

ومستقبل مشروعهم . فقد بات من الضرورى تقييم ذلك المشروع وتوجيهه من آن لآخر ، وتسديد المسيرة ، تنظيراً وممارسة ، والبحث عن المؤثرات الحقيقية التى تعرقل حركة الدفع ، ومن ثَمَّ كشف الثغرات التى تؤتى من قِبَلها بداية من الداخل .

وهذه المحاولة ليست بدعاً ، ولكنها صدى لنداء مخلص ، بضرورة نقد ومراجعة الذات .

من ناحية أخرى ، ثمة ضرورة أخرى ، تستدعى البحث فى مستقبل الدعوة الإسلامية ، والمشاكل التى تعترضها ، ومن ثَمَّ تأمين الطريق إليها ، من كل ما يشوبه وما يعكره ، وما يعطل التجاوب معها من قِبَل الإنسان العربى أو المسلم المعاصر - قضية الدعوة الأولى - فضلاً عن البَشر جميعاً .

ولا شك أن هناك علاقات متوترة ، تصنع التردد اصطناعاً أمام رغبة ذلك الإنسان فى اتخاذ قرار الالتزام الأول .

وبعيداً عن العراقيل والفتن التى توضع أمام الملتزمين من أهل الباطل ، فذلك رصيد معترف به ، فمع وجود احتكار ظاهرة الجماعات لدائرة الالتزام والعمل الإسلامى ، ثم وجود التناقضات الحادة - أحياناً - بين تلك الجماعات ، ثم غموض مستقبل هذه الجماعات أمام الصراع المرير التى تخوضه مع الأنظمة ، واختيار معركة للتغيير يراها شبه خاسرة . وأمام عدم وضوح تيار شعبى يستوعب الأهداف والواجبات ، ويسلم من النقد والانتقاص وله علماؤه ودعاته ، ولا يستعجل النتائج ولا يصطدم بالسنن . أمام كل ذلك يقف العجز حائلاً كبيراً أمام تفاعل المسلم المعاصر مع نداء الصحوة والتغيير ، وأمام كل ما سبق يحتاج الأمر من الغيورين التوقف ومراجعة المسير .

إن الخطورة التى تتهدد الدعوة الإسلامية الآن لم تعد فى مستقبل إقامة الدولة

الإسلامية أولاً ، ولكن باتت الخطورة فى مستقبل إقبال الجماهير على مشروع التزام غير واضح المعالِم ولا مضمون النتائج .

من هنا جاءت أهمية هذه الدراسة ، وخاصة فى مثل هذه الظروف العصيبة التى تمر بها أمة الدعوة .

ولقد حاولنا من خلال هذا الجهد المتواضع أن نقدم رؤية شاملة لمعظم الإشكاليات التى تعترض العمل الدعوى ، متجاوزين تلك الرؤية الأحادية ، والتى كثيراً ما عانى منها الفكر الدعوى .

واللّه نسأل أن يكون التوفيق من نصيب هذه المحاولة ، وأن يغفر لنا زلاتنا ، ولجميع مَن سبقونا بالإيمان ، ولكل مَن أبلوا فى مسيرة الدعوة ، وللدعوة النصر والتمكين .. إنَّه نعم المولى ونعم النصير .

١٩ رجب سنة ١٤١٣ هـ (الموافق ١٢ يناير سنة ١٩٩٣ م) .

أبو معاذ

*   *   *

الباب الأول

فى المنطلقات

- الأسلمة .. بين صناعة التحدى والبداية من الصفر .
- إقامة الدولة الإسلامية .. بين الهدف الدعوى واختزال التغيير .
- المنطلقات .. بين الحاجة الدعوية والدوران فى رد الفعل .

* * *

الفصل الأول

الأســـلمة

بين صناعة التحدى و البداية من الصفر

نحن أمام علامات إيجابية كثيرة ومضيئة لمشروع إسلامى انتفض بعزة المؤمن وغيرة المسلم ، وأبى أن يرى أمته تُمسخ هويتها ، ويُشوَّش على عقيدتها ، ويُحجَّم ولاؤها ، ويُهجر قرآنها ، ويُضيَّق على إسلامها ، فتضيق به الحياة والشارع .

فيُطرد من الدساتير ومن المحاكم ، ومن المصنع والمتجر .. ورويداً رويداً يباعَد بينه وبين عادات الناس وتصوراتهم .. ، وفى مساحات محدودة ، قد أوصدت بالحصار ، كمن الإسلام خاملاً داخل المساجد . وتاريخ ذلك مكتوب ومشهود لمن أراد الوقوف على ذلك .

* *

وإيجابية المشروع الإسلامى ، والذى تفجرت ينابيعه إثر سقوط الخلافة ، أنه هيأ الصخرة التى تتكسر عليها هذه الريح العاتية فيبتدر للنداء ، دعاة ورجال ، وعلماء نحسبهم ممن قال الله فيهم : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ .. ﴾ (١) . وليكونوا على قدر الله فى أمته ، ومصداقاً لقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم مَن خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » ، وليشكلوا مع مرور

---

(١) الأحزاب : ٢٣

الأيام ، نواة ذلك المشروع ، الذى استجمع إرادة التحدى من نوازع وأفئدة .. أمة ظلت وفية لإسلامها ، مهما دبَّ فيها من عوامل الضعف والانحلال .

فيتصدر هؤلاء الدعاة زمام التقدم بالأمة إلى حيث امتلاك الثقة بهذا الدين ، وإزالة الخبث الذى خالط فهمها وتصورها ، ودفع ما أراده الخبثاء من دس بالدين ما ليس فيه ، فظهر كما كان جلياً ناصع البياض ، ووفق ما فهمه الصحابة والصدر الأول من التابعين وتابعى التابعين .

ولأنه كان قد استمكن من هذه الأمة أعداؤها ، وفرضوا عليها شرائع غير شريعتها ، وقوانين ونظم هى براء منها ، تطور هذا المشروع وتبلورت إرادة التحدى فيه ليصبح أداة لأسلمة الشارع ، الذى ما فتئ يؤكد أبناؤه أنهم مسلمون ، كذلك .. أسلمة السياسة التى يُساسون بها ، والقانون « المستورد » الذى يُحكمون به ... واقتصادهم الذى يتكسبون به ... ، فضلاً عن أسلمة العلوم والآداب التى يُربون عليها ويُنشئون .

وكان من قمة التحدى ، أن تبلور ذلك عملياً فى أجيال وعت ذلك وحصنت به فصمدت بقوة وإيمان أمام رياح التغيير العاتية ، وأخرى قد انتزعت انتزاعاً ، وبعد أن ظن المستغرب أنها باتت له ، وهيئت لنصرته .

فتفجرت روافد المشروع الإسلامى ، فى معاهد العلم ، التى أرادوها مشاعل للتغريب والعلمنة ، فأضحت رائدة فى تغذية حركة الإسلام والأسلمة .

وتلك هى - باختصار - فكرة الأسلمة ، حين تكون وكانت ، أداة لصناعة التحدى ، ضد رياح وتيارات التغريب والعلمنة ، وما تولد منها ، من تحلل وانتكاسات على جميع الأصعدة ، فضلاً عن أنها - الأسلمة - قد عملت على تغذية الدعوة الإسلامية ، وجندت لها دعاة على مستوى عال ، تمثلت فيهم جميع شرائح المجتمع ، وبعد أن كانت موقوفة ردحاً من الزمان على خريجى المعاهد الدينية ، مثل الأزهر ، وحركة هى كذلك ، كان من الطبيعى أن يكون دربها محفوفاً بالأشواك ، والجراح ، وأن يتولد ضدها عداء طبيعى ، يمليه اختلاف فى

الأهداف والولاءات ، والغايات ، وأن تتصاعد حدته مع تبلور رياح التغيير إلى نظم سياسية ارتأت العلمانية نظاماً وبناءً .

والرصيد الأساسى من هذا العداء ، يفطن إليه - بالضرورة - كل مَن سار على درب الإيمان ، فضلاً عن أن يتسلح بالعدة المكافئة المنضبطة ، وحتى لا تتعطل مسيرة دعوته ، أو يوقع به فى حبال المكر والدهاء ، والاستدراج والمكيدة ، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، وإلى أى مدى كانت تجربة المشروع الإسلامى تتعامل مع هذه الحقيقة .

نكرر لنؤكد ، لقد كان الإطار العام ، الذى يتمحور حوله المشروع الإسلامى ، هو بث روح التحدى ، والثقة فى نفوس المسلمين ، وأنه لا بديل عنه كنظام للحياة ، ومنجاة فى الآخرة .

وتلك هى صورته العامة على أنصعها ، تختزن فى مكنونها ، ملحمة خالدة من الجهد الدؤوب والعمل المضنى ، فى محاولة لأن يكون على مستوى الحدث وتحديات المرحلة التى تعيشها الأمة .

* *

ولكن ثمة أشياء فى الصورة ، تحاول أن تشوش على نقائها ، وتعمل - بغير قصد - على تعكير صفائها . من قبيل ذلك أن ثمة اجتهادات أو صياغات أو إسقاطات ، حاولت أن تضفى على المشروع - أو تلبسه - تصوراً وأُطراً خاصة إمعاناً - فيما تعتقده - فى أن ذلك سوف يزيد ويشعل من فاعلية القاعدين والسلبيين أو يحدد عناصر المعركة ، علّ ذلك يعجل بسرعة الحسم وتعرية المترصدين للمشروع الإسلامى ، فكان من ذلك : أن تم إضفاء تفاسير وتصورات شارطة ومحددة لإطار الأسلمة ومفهومها .

فجاء مَن أطلق مفهوم الأسلمة - بعموم اللفظ - ، فبدلاً من أن تكون إطاراً وأداة للإصلاح والتجديد أو للدفع والتحصين ، أصبح المراد أن تكون أداة

لإدخال الناس – الذين هم مسلمون بطبيعة الحال – من جديد فى الإسلام ، ومن ثَمَّ فالواجب تنظيم عملية الدخول ، حتى لا يتسرب إليها القاعدون والمرتضون حكم الطاغوت .

وبدلاً من أن ينطلق الدعاة ، من حيث اعتراف الناس على أنفسهم ومن كونهم مسلمين ، ثم يوظفون هذا الاعتراف فى الانطلاق بهم إلى سلم الصعود والمجاهدة ، بدلاً من ذلك ، جاء مَن يصادر هذا الاعتراف – بدون وجه حق – فأردى الأمة فى مهاوى الجاهلية والارتداد [١] .

وبدلاً من أن ينطلق من مشروعية انتماء أهل البلاد ، ومن أن يذود عن هذا الانتماء ومعتنقيه ، انسحب وسلَّم الجماهير طواعية للآخرين ، وأعطاهم حق التكلم باسم الشعب ، وباسم القاعدة العريضة ، فلا شأن للشرذمة وبدينها الجديد .

وانطلاقاً من قاعدة جائرة ، تقول بانقطاع الأمة الإسلامية منذ قرون ، نودى بالعمل من جديد بتشكيل نواة هذه الأمة والبداية بها من جديد ، مع إعادة تطبيق قواعد العلاقات الاجتماعية بين المجتمع الموجود ونواة الدعوة الناشئة ، ومع نظرات المفاصلة ، والاستعلاء والتمايز ، قطعت آخر الخيوط والأواصر مع المجتمع المسلم الأم .

فتحوّل بذلك المشروع الإسلامى ، إلى أداة انقطاع عن حركة ماض لم تنقطع فيه بذور الإصلاح والتجديد ، وانفصال عن أمة حاضرة ، ما زال الإسلام ينبض فى دمائها ، وإن حال الران ، وضعف وسائل التذكير ، والخوف فى أحيان كثيرة دون الإفصاح عن هذه الطاقة الكامنة .

جاء مَن يبشر بالمشروع الإسلامى ، حاملاً معه شهادة وفاة الأمة ، ويؤسس

---

(١) وإنه لمن الضرورى التنويه على تلك الوقفة التاريخية ، وكيف تصدت قيادات مبكرة – عن مسئولية – لتلك الموجة التكفيرية التى ولدت فى ظروف غير طبيعية مثل كتاب الأستاذ حسن الهضيبى « دعاة لا قضاة » .

على ركامها الحى ، حركة تبدأ من الصفر . وحتى يقفل الباب تماماً على محاولات الإصلاح على أرض الواقع ، تم إدخال شرط للمشروع الإسلامى ، بأنه حركة انقلابية ، لا تقبل بالترميم ، أو الترقيع ، أو أنصاف الحلول .

لقد كان من الخطأ بمكان ، أن انعكست حركة الصراع السياسى بين المشروع الإسلامى والنظام السياسى الحاكم - الذى ابتلى من جرائه الآلاف من خيرة الدعاة - أن انعكس هذا فى تقييم أمة بكاملها ، فكان جزاؤها ، أن يُسحب منها ويُصادر عليها ، الانتماء الأدنى للإسلام ، ولا يُقبل منها أى قدر منه ، ولا بد إذاً من العودة إلى الصفر .

وليتحول المشروع الإسلامى مع الأيام ، وبفضل الممارسات العملية للمنتمين إلى المشروع أو بعض منهم ، إلى أداة من أدوات القصر ، يبدأ وينتهى الالتزام بالدين عند حدود فئة أو جماعة أو حزب معيَّن .

وإزاء ذلك وجدت جماهير الأمة ، أن دين هؤلاء ليس بدينها ، وأنهم ربما يدعون إلى دين خاص بهم ، ومع الأيام ، توطدت علاقاتهم ومصائرهم ، أو مصير علاقتهم بدينهم بالآخرين ، فكرياً ونفسياً .

فأصبح من حق الآخرين ، عندما يتحدثون ، مناهضين أو مستعدين ، التحدث باسم الشعب ، وباسم الإسلام ، وهم على يقين بتصديق وتأييد الشعب لهم .

إننا عندما نثير تلك الحقائق ، لا نثيرها لكونها سلبيات تقدح فى مصداقية المتصدرين لهذا العبء الضخم ، خاصة أن سلبياتهم - وهم ليسوا بمعصومين - تتضاءل أمام الإيجابيات ، ثم أمام سلبيات وعورات الآخرين ، فضلاً عن الأخذ فى الاعتبار الظروف والضغوط التى مرّ بها دعاة المشروع .

ولكننا نثير ذلك ، حيث إننا بصدد البحث عن المؤثرات الحقيقية فى مسيرة ومستقبل الدعوة الإسلامية ومدى مسئولية العاملين - تنظيرياً وحركياً - فى معدل دفعها وفتح الثغرات المشجعة لنفوذ الآخرين وتعريض العمل الإسلامى للضرب والإعاقة المرة تلو الأخرى .

ولنا أن نتصور ، حينما لم يضبط مفهوم الأسلمة ومعياره ، فى مجتمع مسلم يمثل صلب المشروع الإسلامى ، كيف تحول إلى أداة انفصال وانقطاع عن محيط الأمة المحيطة بحركة الدعوة ، فضلاً عن كونها أمة مسلمة ، ثم إلى أداة للهدم، فلم يعترف بالأقدار الإيمانية التى عليها الأمة ، ثم إلى أداة قصر ، فكل مَن ليس منا فهو علينا ، أو مشكوك فى إسلامه .

فقل لى بالله عليك ، ماذا بعد تجريد المشروع الإسلامى ، من بُعده الزمانى والمكانى والجماهيرى ، وليصبح الالتزام بالإسلام ، مقصوراً على فئة معينة .

فلماذا لا يُضرب ، ويُعاوَد ضربه ، المرة تلو المرة ؟

ثم لتبدأ حركة أسلمة من جديد ، تبدأ من الصفر ، فضلاً عن تعطل آليات تفعيل الدعوة الإسلامية .

* * *

الفصل الثانى

إقامة الدولة الإسلامية

بين الهدف الدعوى واختزال التغيير

إقامة الدولة الإسلامية هدف أساسى انطلقت له وارتكزت عليه ، وعملت له الحركة الإسلامية منذ انطلقت مع نهاية العشرينات من هذا القرن الميلادى .

وربما السبب الأساسى فى ذلك اقتران نشأتها بسقوط الخلافة الإسلامية فى تركيا ، وزوال السلطان السياسى للمسلمين ، إثر تفكك أوصالها واقتسام الاستعمار الغربى أطرافها ، وربما لوجود سبب آخر مهم ، هو اقتران مرحلة السقوط هذه ، بفكرة خبيثة أشاعت فى المسلمين أن الإسلام دين لا دولة ، وأن الرسول ﷺ بُعِثَ رسولاً مبلِّغاً ، ولم يُبعث زعيماً أو حاكماً .

وخطورة انتشار هذا الفكر وتشويشه على عقائد المسلمين ، أنه يقطع أسباب التفكير عند المسلمين للنهوض من جديد لاستعادة الخلافة ، وإقامة الحكم الإسلامى .

ومن هنا فلقد كان من الخير - كل الخير - للأمة ، أن يهيئ اللّه لها مِن أبنائها مَن يكون على يقظة من هذا الأمر ، ومن ثَمَّ البدء فى التفكير فى إحباط ما أراده المستغربون ، فانطلقت فى مصر أول حركة أرادت أن تنظم عملاً جاداً ، يهدف إلى بعث الروح فى الأمة ، والوقوف أمام هذه الحملة الفكرية التى أرادت النيل من عرى الإسلام .

وإذا كانت انطلاقة الحركة الإسلامية ، حينذاك لبناء مشروع إسلامى كان على رأس أهدافه إقامة الدولة الإسلامية انطلاقاً من مشروعية دينية صحيحة ، وهى

أن الإسلام دين ودولة ، وشريعة وقانون ، ثم من مشروعية قومية تاريخية ، بالوقوف أمام الحملة الاستعمارية والفكرية ، ومن أن القعود وعدم العمل على إقامة الدولة الإسلامية والحكم الإسلامى إثم وقعود عن جهاد .

فرغم هذا الحشد من المشروعيات ، التى تدعم هذا الهدف الطموح ، ففى نفس الوقت وإزاء التعثر فى تحقيق هذا الهدف ، وتهدد المشروع الإسلامى برمته ، وتعثر استمراريته بين الحين والآخر ، وبروز هذا الهدف وسط معادلات القوى التى تجعل المسلمين رهينة فى أيدى القوى الكبرى ، ومع حيلولة السماح لبروز دولة إسلامية تفتح الطريق لإعادة الكيان الإسلامى العالمى ، ثم مع بروز الهدف كحجر عثرة أمام إفساح المجال للعاملين لتسهيل مرور مشروعهم إلى الأمة . أمام كل ذلك ، يبرز تساؤل بين الحين والآخر ، يفرض نفسه وهو :

هل كان من الضرورى ، أو من الحكمة البدء بالتهديف بإقامة الدولة الإسلامية ، وإفشاء أهداف المشروع من الألف إلى الياء ؟ من الفرد المسلم ، إلى استعادة الخلافة ، واستعادة الأندلس ، وكل أرض كانت فى حوزة المسلمين ؟ وبداية قد يكون من العدل ، لو فرّقنا بين مرحلتين ، قد تختلف فيهما الظروف والمداخلات :

الأولى : مرحلة الاحتلال الغربى للأمة .

الثانية : مرحلة الحكم الوطنى التالية .

ففى الأولى قد لا يستطيع المرء أن يجيب بالقطع ، وفى ظل تلك الظروف الغابرة ، ما الذى كان يجب البداية به وما الذى يمكن تأجيله ، وإلى أى مدى كانت هناك ضرورة بالبدء بالتهديف لإقامة الدولة الإسلامية - وعلانية - . وهل كان يمكن تجاهل البون الشاسع بين حال الأمة حينذاك ، وهو نفسه الحال الذى أضاع الخلافة ، وبين وضع يهيئ لإقامة الدولة الإسلامية ، وخاصة أن الحكم الإسلامى لم يسقط من فراغ ، سواء أكان هذا السقوط كان بفعل - خارجى ، أو من عوامل تحلل الأمم . ولماذا لم تكن فى الأهداف العملية المرحلية ، بديلاً

إلى حين ، وإلى أى مدى كان بالإمكان الصمود أمام هذا الثلاثى الخطير - بهذه الدعوة العملية - والذى يشمل عدواً مهيمناً جاء قاصداً نسف النظرية السياسية الإسلامية من الأساس ، ونخبة تؤمن بما يراه المحتلون بفصل الدين عن السياسة، ثم شعب جاهل طمست عليه المفاهيم ، فضلاً عن المثبطين من أهل التدين .

ولقد كان واضحاً أن هذا التصدر المبكر لمؤامرة العزل التاريخية - عزل الدين عن الدولة - وحيث تجاوزت محاولة التصدى ميدان الفكر إلى ميدان التنفيذ العملى ، ومن خلال مشروع عملى حركى ، تحدٍّ كبير فى ذاته ، ومن ثَمَّ كان هذا التهديف المعلن الطموح ، عملاً استفزازياً للجميع وربما هذا ما عناه وتنبأ به ببصيرة عالية ، الشيخ حسن البنا حين صارح إخوانه وتلامذته بقوله : « أحب أن أصارحكم بأن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ، ويوم يعرفونها ويدركوا مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة ، وعداوة قاسية ، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات ، وسيعترضكم كثير من العقبات » .

ثم عدَّد من هذه العقبات قائلاً : « سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم ، وستجدون فى أهل التدين ومن العلماء الرسميين مَن يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم فى سبيله ، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان ، وستقف فى وجهكم كل الحكومات على السواء ، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل فى طريقكم ، وسيتذرع الغاصبون بكل طريق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ، وسيستعينون بذلك بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدى الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان ... » [1] .

نقول - ومع موانع التهديف السابقة - فمن الصعوبة القطع بأن الحكمة كانت مع تأجيل التهديف بذلك . خاصة وأننا لا نستطيع أن ننكر عوامل أخرى مثل

(١) مجموعة الرسائل « بين الأمس واليوم » .

أن ظروف العمل كانت مهيئة لذلك ، فكانت الفرصة مواتية ومشجعة لتحقيق ذلك أكثر من ذى بعد ، فضلاً عن أن الزمن لم يكن فى صالح الأمة ، ثم اقتران هذا الهدف بمعركة التحرير من الاستعمار والمعبأة لها الأمة جميعاً ، فضلاً عن قرب عهد الأمة بمأساة سقوط الخلافة ، وعدم تغلغل الفكر العلمانى والانحرافى فى جمهور الأمة وعامتها كما هو عليه الآن ، ثم أخيراً ، توفر ذلك العامل المهم ، حيث انفتاح الساحة للعمل التنظيمى والجهادى ، وخاصة مع وجوب العمل الجهادى على كل مسلم ومصرى بلا اختيار . وهذه العوامل ولا شك تصب فى منطقية العمل لذلك ، وإن لم تكن بالضرورة مع التهديف المعلن .

ولذلك فقد يظل السؤال نفسه أكثر إلحاحاً ، وهو : ألم يكن فى الأهداف الدعوية المرحلية والعملية ، غناءً أكثر من هذا الهدف الذى يبدو أكبر من مجرد أخذ بالأسباب ، ثم لماذا لا تتجاوز الدعوة الإسلامية الوعد بإقامة أهداف مادية محددة ، وأمامها تاريخ رحب يمكن أن تصنعه ، ثم تكون فيصلاً حضارياً بين مرحلتين فى تاريخ الأمة ، وكما كان الإسلام فيصلاً حضارياً فى تاريخ البَشرية وفى تحرير العقل الإنسانى من أسر العبودية فى الاعتقاد والتصور والسلوك والقيم ؟

وإذا كان ما سبق هو الشأن بخصوص المرحلة الأولى ، فمن الطبيعى أن يختلف الحال عنه فى المرحلة الثانية ، ومن الطبيعى - كذلك - أن يختلف الأمر فى دراسة جدوى التهديف فى مرحلة الحكومات الوطنية وخاصة إذا صاحب ذلك اقتصار الطريق واختزال المراحل ، ومع الاصطدام بسنن التغيير والقانون الاجتماعى والاعتماد فقط على عامل امتلاك وسائل القوة فى معادلة الصراع مع السُلطة .

ولا أدل على ذلك من سيطرة فكرة - لبعض الوقت - تقول بتأخير عرض أى شئ من برنامج الإسلام قبل قيام الدولة الإسلامية (مع أخذنا فى الاعتبار الظروف التى قيل فيها ذلك) .

وعموماً فمن تجربة المشروع الإسلامى فى هذا القرن ، يستطيع أى مراقب ، أن يلاحظ بعض الظواهر ، التى أثّرت على عملية التهديف وصناعة الأهداف ، وخاصة فى العقود المتأخرة ، وما بعد الستينيات من هذا القرن الميلادى ، ومن هذه الظواهر :

أولاً - الارتكان على المشروعية فقط أو (تفريغ المشروعية) :

فمن مراجعة كثير من ممارسات قطاعات من الإسلاميين ، تجد الاعتماد بعفوية على مشروعية الفعل وعكسه فقط فى صياغة التحرك فى اتجاه ذلك الفعل أو عكسه ، دون مراعاة لمجمل الضوابط والظروف التى تحكم القيام بهذا الفعل أو تحقيقه على أرض الواقع .

فمن منطق مشروعية الدولة الإسلامية ، وعدم مشروعية الحاكمين بغير ما أنزل الله ، كان التركيز على الحكم فى معظم الخطاب الدعوى ، والانشغال بالقدرة على كشف الثغرات السياسية فى تجربة الحكم . فجاء الخطاب مفتقداً لبناء خطة تسهم فى إحداث تغيير اجتماعى بعيد المدى ، والاعتماد على الزمن فى إحداث التغيير المبتغى . ومن ثَمَّ تم تجاهل أهمية إقامة حوار اجتماعى يزلزل الأنماط والظواهر الاجتماعية ، أو حتى السياسية ، ليعيد تشكيل رأى عام يبدأ من القاعدة .

فمن هنا يمكن القول أن الخطاب الدعوى جاء اختزالياً لكثير من ضرورات التغيير ، وتهيئة الأسباب الطبيعية لإقامة الدولة الإسلامية .

ثانياً - أزمة التعامل مع الإسلام المكتمل :

أفرز العمل الإسلامى أنه يعانى من مشكلة الانطلاق فى الاجتهاد فى كثير من الأحيان من منطق النتيجة الكلية لاكتمال الدين ، فيرى من التحرج أمام هذه التجربة الكاملة ، تأخير وتقديم بعض الأعمال المقررة ، فمن أى الأعمال يبدأ وبأية وسيلة ، وما الغاية التى يجب أن يصل إليها فى مرحلة ما ، وما هى

النصوص التى يحتكم إليها ، نصوص مرحلة التمكين أم مرحلة الاستضعاف ، وخاصة فى إطار العمل لإقامة الدولة والتمكين .

وهذا أمر لم يعان منه الصحابة ، إذ كان هذا الجيل يتحرك مع تدرج التشريع، ومن هنا فالحاجة مُلّحة لتحديد هذا التصور الواقعى ، الذى يوفق بين التطلع المرحلى ومقتضيات الصورة الكلية ، وخاصة فى مجال تحديد الأهداف .

ثالثاً - أزمة رد الفعل :

من الواضح أن العقل الإسلامى بوجه عام قد أصيب بصدمة عنيفة إزاء معطيات الحضارة الحديثة (الغربية) وإنجازاتها ، ولم يكن يملك يومذاك التحصين الكافى للتعامل الصحيح معها ، وقد بدا أثر هذا الانفعال من خلال رد الفعل الإسلامى بمستوياته المختلفة ، فمن ذلك ، ظهر ذلك الفريق المهزوم بالكلية ، وقد امتلكت الحضارة الغربية لبه وملكت عليه عاطفته ، فحاول - حثيثاً - أن يوفق بين الإسلام والحضارة وأن يوطن الأول للتوافق مع الثانى لا العكس ، ووُجِدَ الفريق الآخر ذلك الرافض بالكلية ، فكان منه إعلان الحرب على ذلك التمدن والتقدم خيره وشره ، وظهر ذلك الفريق الثالث ، الذى كان أكثر وعياً ، ورأي أن المشكلة تعود لعدم الفهم الحقيقى للإسلام ، فضلاً عن تطبيقه عملياً ، ولكن مع ذلك فقد نال ذلك الفريق قدراً من التأثر بالاستغراق كثيراً فى مواجهة هذا التحدى الخارجى ، ودون مراعاة للعوامل الأخرى والمؤثرة على سقوط الأمة ، بنفس الدرجة .

وخطورة الانطلاق من رد الفعل ، أنه يجعل الفاعل أسير العاطفة ، سواء أكان فى إطار الهزيمة النفسية ، أو فى إطار الردع والانتقام (بمواجهة مستعجلة) .

رابعاً - ظاهرة التعجل والاندفاع :

عانى العمل الإسلامى وما زال يعانى من بروز فقاعات بين الحين والآخر ، ومن خلال انفجارها تقوم بنسف ما تم بناؤه ، ثم الدخول فى ممارسات مسدودة من الصدام والنطاح ، ولا يفوت هذه الفقاعات أن تجد لها من المشروعيات

المفرغة مسوغاً فى انطلاقها . وأصبح من الضرورى الآن إيجاد تفسير لهذه الظاهرة وعلاقتها بمسألة التهديف ، وأيهما الذى يؤثر على الآخر - وبعبارة أخرى - أيهما يؤدى إلى الآخر ، عمليات الاندفاع والتعجل هى التى تعوق تحقيق الأهداف ؟ أم أن نوعية الهدف هى التى تدفع إلى التعجل واختزال المراحل ؟

خامساً - النجاح فى الميادين الفكرية :

من الملاحظ أن أبرز الميادين التى استطاع المشروع الإسلامى أن يحقق فيها نجاحات بارزة ، كانت فى الميدان الفكرى ، وما زالت موجات الغزو الفكرى تتهاوى أمام سهام الإسلاميين ، وربما لأن ذلك كان أكثر توافقاً مع قانون التغيير ، فلا بد لأى تغيير سياسى من أن يسبقه سيطرة الفكرة الإسلامية ، وقد يكون من الصعوبة إتمام التغييرين فى آن واحد ، بل إن التغيير السياسى أو الجهاد السياسى يحتاج إلى مرحلة بلوغ معيَّنة فى أمة الدعوة . إما امتلاك أرض أو امتلاك شعب ، وقد تكون محاولة إجراء التغييرين معاً سبباً فى إجهاض أحدهما الآخر كما حدث ، وقد يبدو ذلك واضحاً ، من حكمة بداية الدعوة الإسلامية باستيفاء الحوار والجدال الحسن ، قبل جهاد السيف ، كما لم تقم الدولة فى المدينة إلا بعد أن دخل الإسلام فى كل بيت .

*　　*

● المودودى وقانون قيام الدولة :

كيف السبيل إلى إقامة الدولة ؟ وكيف تتهيأ الأسباب لذلك بلا اصطدام بالنواميس ، أو تعسف فى التعامل مع المشروعيات ؟ - تحت عنوان « الارتقاء الطبيعى لنظام الدولة » كتب الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى رسالته المفيدة « منهاج الانقلاب الإسلامى » :

« والذين لهم أدنى إلمام بعلوم العمران - يقصد علم الاجتماع - يعرفون أن الدولة مهما كان وضعيتها لا تتكون بالطرق الصناعية ، فليست هى التى تُصنع فى مصنع ثم تنتقل منه وتثبت فى موضع آخر ، بل إنها تنشأ فى المجتمع

نشوءاً طبيعياً لأسباب أخلاقية ونفسية وعمرانية وتاريخية وتفاعل هذه الأسباب فيما بينها ، فتكون لها أمور أولية لازمة ومحركات اجتماعية ومقتضيات فطرية تتجمع وتتقوى حتى تنبعث منها الدولة انبعاثاً » .

ثم يقول : « كذلك مما أجمع عليه علماء العمران أن الدولة الراسخة البنيان نتيجة طبيعية لمقتضى الأحوال والظروف المتجمعة فى المجتمع ، وأنه يتوقف - كذلك - تعيين هيئة الدولة ووضعيتها الخاصة تماماً على تلك الأحوال والعوامل التى تقتضى تكونها » .

ثم دلل قائلاً : « فكما لا يمكن أن يكون للقضايا صورة مخصوصة ثم تظهر منها بعد ترتيبها نتيجة غير ما تستدعيها القضايا وترتيبها بوجه خاص ، وكما لا يمكن أن تكون للأجزاء الكيماوية خصائص ثم يظهر بعد امتزاجها وتركيبها شئ تختلف خصائصه عما يقتضيه تركيب تلك الأجزاء وتمازجها بصورة مخصوصة ، فكذلك ليس من الممكن أن تجتمع الأسباب لطراز خاص من الدولة ، وتكون طرق عملها أيضاً يلائم ذلك الطراز ونماءه وازدهاره ، ثم حينما تبلغ كمالها أو تكاد ، بعد مجاوزتها مدارج الرقى والنهوض تظهر فى صورة غير التى تقتضيها تلك الأسباب والعوامل . لعمر الحق أن ذلك لا يحدث أبداً » اهـ .

ولنسأل الآن : إلى أى مدى استطاعت الحركة الإسلامية أن تهيئ الأسباب الخُلُقية والنفسية والاجتماعية التى تكون الأمور الأولية اللازمة والمحركات الاجتماعية ، والمقتضيات الفطرية التى تتجمع وتتقوى حتى تنبعث منها الدولة انبعاثاً ؟

*   *

● البنا يعترف بالاختزال .. لكن :

ورغم أن دراسات كثيرة قد أقرت بحجم تغلغل حركة الإخوان المسلمين فى المجتمع المصرى ، وكيف أنها حاولت إلى مدى بعيد استثمار فرص بناء المؤسسات والأعمال الاجتماعية ، والتى تندرج تحت تهيئة الأسباب لعمل

اجتماعى يصب فى التغيير فى صالح المشروع الإسلامى بطريقة طبيعية ، فإن ضغط الظرف السياسى والقومى كان مهدداً لهذا المشروع ، ومن أن يؤتى ثماره فى حينه ، ونستدل على ذلك ، بهذا الموقف الذى شاء اللّٰه أن يسجله الإمام البنا فى رسائله ، وقد يحتاج منا إلى دراسة وتمعن فى هذا الباب ..

قال الأستاذ حسن البنا : « قال لى أحد أصدقاء الإخوان من الذين لا يُتهمون فى رأى ولا فى نصيحة منذ أيام قلائل : أليس الأروح للإخوان والأجدى على الوطن أن تشتغل هيئة الإخوان بالأغراض الأدبية والاجتماعية والاقتصادية من برنامجها - وهى من الإسلام أيضاً - وتدع الناحية القومية أو السياسية ، بعبارة أخرى لسواها من الهيئات حتى لا يتعرض للعواصف القاسية هذا البناء العالى الذى أصبح للغيورين أملاً ، وفى تاريخ هذه النهضة عملاً ؟

فقلت له فى صراحة وإخلاص وتأثر : واللّٰه يا أخى إنى لأشاركك هذا الرأى، وأجد فى أعماق نفسى هذا الشعور قوياً عميقاً ، وأكره أشد الكراهية ما يصحب هذا النضال من مظاهر وآثار فى النفوس وفى الصلات ، وما يجر إليه من نواحى الشهرة والجاه الكاذب الذى يلهى الناس عن الحقائق والواجبات ، وكم كنت أتمنى أن تكون الظروف معى ومعك ، وأن تدع لنا الحوادث من الوقت ما يتسع لهذا الذى تحب وأحب ، وليس ذلك عن حب للراحة أو إيثار للدعة ، ولكن الأمور هى كما ترى الآن » .

ثم بيَّن له كيف أن ضغط عامل الاحتلال والوجود الأجنبى لم يدع للدعوة خيار فى تحمل المسئولية ، وأن الشعور الوطنى فى حاجة لأيد حكيمة تقوده فى الطريق الصحيح ، وكيف أنه لا يجدى أى إصلاح فى ظل الوجود الأجنبى الذى صدَّر للأمة الفساد ، وفى ظل الحكومات الضعيفة - المتلاعب بها من قِبَل الأجانب - والمتحكمة فى رقاب العباد .

ثم ختم إجابته بقوله : « واللّٰه يا أخى لو كنا أمة مستقلة تُصرِّف أمورها حكومة يقظة ، لكان فى كل غرض من أغراض دعوتنا على حدة متسع لكل

أوقاتنا ومجهوداتنا ، فهذا الغرض العلمى من شرح دعوة الإسلام والكشف عما فيها من روعة وجمال ، وهذا الغرض الاجتماعى من مواساة المنكوبين ومعاونة البائسين ، وهذا الغرض الاقتصادى من استنفاذ الثروة القومية وتنميتها وحمايتها ، كل غرض من هذه الأغراض يستغرق أضعاف وقتنا ويستنفذ أمثال جهودنا ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه » [١] .

قال الإمام هذا الكلام فى اجتماعه برؤساء المنطلق ومراكز الجهاد سنة ١٩٤٥ . ترى لو كان الشيخ رحمه الله بيننا الآن ، هل كان سيستمر على قناعته هذه بالاستغراق فى المسألة القومية ، أم كان سيعطى وقتاً أكثر فى تهيئة الأسباب الطبيعية من أجل قيام الدولة ؟؟ ... الله أعلم .

ومن الطبيعى أن لا يمر هذا الكلام دون قول قائل ، وما الفرق بين حالنا الآن عن أيام الاحتلال ، فما زالت بلادنا محتلة ويحكمها عملاء ؟

ثم لن يفوت معترض آخر - قد أعيته الحيل - أن يقول : وكيف يجدى أى مجهود دعوى أو إصلاحى مع وجود السيطرة لإعلام خبيث يذهب بجهود العلماء والدعاة ؟

ولتضيق بؤرة التفكير من جديد ، ولا مفر إذاً من جولة أخرى مع الحكام .... والله أعلم بمن اهتدى .

* * *

---

(١) الرسائل للإمام البنا .

الفصل الثالث

المنطلقات

بين الحاجة الدعوية والدوران فى رد الفعل

عامل أساسى سيطر سيطرة كاملة على دوافع ومنطلقات العمل الإسلامى ، ومشروع القرن المعاصر ، فكان الدافع الأكبر الذى طالما حرّك الدعاة وما زال ، فأرّق منامهم ونغّص عليهم معيشتهم ، وكدّر عليهم صفو حياتهم ، ثم كان المداد الذى يغذى دافع الهمة والتنبيه ، والإيقاظ والدعوة ، وذلك غيرة منهم على دين الله ومحارمه ، وظل هذا الدافع مؤثراً أساسياً فى رسم مناهج التغيير والحركة ومناهج التربية والبناء ، ثم كان أخيراً وراء تحديد ملامح الصراع وأطرافه ومداه وطبيعته .

لقد كان ذلكم العامل وتلكم الدافع والمنطلق : « الهزيمة الحضارية للأمة والخطر الخارجى » .

فلقد كان واضحاً أن الهجمة الاستعمارية الأخيرة على ديار الإسلام ودولة الخلافة فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ذات أبعاد خطيرة ومتعددة ، وكان واضحاً أنها أخطر الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى ، والأكثر تخطيطاً والأبعد أهدافاً والأدق توقيتاً وظرفاً . فجاءت وهى تحمل قَدَر الله فى دوران الدائرة على أمة غفلت عن سر كينونتها ومبعث قوتها وعزها ، وتكاسلت عن حمل الرسالة بعد أن أبطلت مفعول آياتها فى آفاق الزمان والمكان . فكان تأثير هذا الحَدَث أكثر أثراً فى النفوس وعلاقتها بدينها من أى خسارة مادية ، كاستنزاف الثروة وغيرها ، مما يمكن تعويضه واستعادته .

ومع وضوح أن آثار هذه النكبة الحضارية قد أخذت بُعْدين فى آن واحد ، بُعْداً آنياً ، ومعاصراً للحَدَث ، وبُعْداً مستقبلياً تكشفت خيوطه مع الأيام ، وبعد نفاذ التأثير .

وقد وضحت خطورة البُعْد الأول فى مدى التأثير الاجتماعى وصناعة النخبة ، وفى آن واحد وجدت الأمة نفسها إزاء غزو فكرى ، يستهدف تطويق الرسالة الحياتية لدين الأمة - الإسلام - أسوة بكنيسة الغرب ، وكشرط لصناعة التقدم على حد زعمهم ، ثم غزو اجتماعى يقتلع جذور الحياء والتعفف ويستبدل بها بذور الفساد والإباحية ، ولقد صدِّرت هذه البضاعة فى قالب سحرى ، وتحت شعارات برَّاقة تبشر بعصر التنوير والتحرر .

فبدأت فى مصر - على سبيل المثال - عدة صناعات فى آن واحد تروِّج لبضاعة الغزو ، فبدءاً بصناعة الصحافة والفكر ، ومروراً بصناعة الموسيقى ، فصناعة المسرح والسينما ، وأخيراً بصناعة الأزياء والموضات .

وحين تراجع القضايا المطروحة من خلال هذه الوسائل فى بداية عهد الأمة بها وتراجع الأسماء التى وراءها ، تقف كثيراً على مدى خطورة هذا الغزو .

ومن ثَمَّ فقد كان من الطبيعى أن تشكل هذه المؤثرات ضغطاً ما على أهل الغيرة ، من أجل التحرك للتصدى لهذا البُعْد الخطير وتسليح الأمة وتحصينها ضد آثاره .

ثم بدا مع مرور الأيام ، وكشف الحوادث بعضها عن بعض أن هناك بُعْداً آخر يؤمن لمستقبل التغيير الطارئ ويرسخ لحالة الضعف والهزيمة والانفصام الإسلامى ، مستأصلاً لروح الجهاد والمقاومة ومفشلاً لأى محاولة حقيقية للنهوض والتقدم ، ضارباً بكل قوة المحاولات الإسلامية على وجه الخصوص .

وقد بدأت تتضح ملامح هذا البُعْد التآمرى ، التى تقف وراءه منظمات ودول، تعمل فى الخفاء والعلن ، وبدءاً من محاولات إسقاط الخلافة ، ومروراً بمنظمات الماسونية ومخططات التبشير - التنصير - فرياح التغريب والعلمنة ،

فبروتوكلات أبناء صهيون والعلو الإسرائيلى ، وبعد أن حققوا مؤامرتهم بإنشاء دولة لهم فى فلسطين ، فمؤامرات الشيوعية ، فالدور الأمريكى الغربى ، فتحالف المعسكرين على الإسلام ، وأخيراً سيطرة الدور الأمريكى على النظام العالمى . ومدى ضلوع الدور المحلى من خلال الأنظمة العربية والإسلامية ، فى ضرب المشروع الإسلامى والحركات الإسلامية .

* *

ومع التشاغل المركز للمشروع الإسلامى الفاعل ، بقضايا التحدى الخارجى ، كان من الطبيعى أن يستحوز هذا البُعْد على اهتمام الإسلاميين والدعاة ، محاولين درأه وكشفه وتحذير الأمة منه ، وقد ظل هذا الاهتمام يكبر ويتسع مع الأيام ويدور مع دورات المتآمرين ، حتى بدأ هذا الخطر أكثر هلامية ، كسحابة تلوث هواء الأمة وتضغط على أنفاسها ، وظلت هى هى على حالتها تنتظر الفعل لكى تتوالف معه وتتكيف نحو تآكل جديد وهزال .

ومع أنه لم يكن خافياً على الغيورين والمبتدرين للعمل والأيقاظ حال الأمة ، وأنها لم تكن الأمة التى عناها الله بالرسالة الخاتمة ، ومن كون هذه الأمة قد نخرت فيها عوامل الضعف والتحلل ، منذ سنين عديدة بل قرون ، وأنه قد أصابها من العلل والأمراض ما أصابها ، فإن هذا الحال لم يكن محركاً أساسياً للعمل كمنطلق ، وفى موازاة الاهتمام بالتحدى الخارجى .

ومع أن العدل يحتاج منا أن نسجل هذه النجاحات التى تحققت على أيدى الذين حركتهم هذه الدوافع والمنطلقات حيث استطاعوا - بتوفيق الله - حسم خيار الأمة إلى حد ما فى اتجاه إسلامها ، فإننا يجب أن نعترف فى نفس الوقت أن الأمة ظلت على حالتها تفتقد الإبصار والعافية ، وظلت تنتقل من ضعف إلى ضعف أشد ، ومن تيه إلى آخر أظلم منه ، وها هى تبدو ألعوبة سهلة تتقاذفها مصالح الغرب وأهواؤه .

* *

وإنه لمن الضرورى الآن أن نتوقف عند هذه المنطلقات ودوافع التغيير ، لنرى هل كانت كافية لأمة الرسالة ، أم كان الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك ، بالإضافة إليه ، ومن ثَمَّ فقد يكون من الضرورة أن نسجل هذه الملاحظات :

أولاً : أنه باستحواذ العامل الخارجى بصورة أساسية على اهتمام الدعاة والمصلحين ، فقد جاء ذلك على حساب النظر فى حال الأمة وأمراضها الداخلية وقابليتها للذوبان والاستعمار ، ومع تركيز جهد الدعاة وتنظيرهم على أقصى درجة لمواجهة التحديات الخارجية ، ظلت الأمة وجماهيرها على حالتها ورقة سائغة يلعب الآخرون على أمراضها وتناقضاتها .

ثانياً : أنه مع أن المشروع الإسلامى قد نجح إلى مدى بعيد فى إحباط البُعْد الفكرى للنكبة الحضارية ، وفى استعادة ثقة المسلمين فى إسلامهم ، فإن هذا - لعمق الانحراف الاجتماعى - سيظل عرضة للأحداث السياسية ، ومرتبطاً بطاقة الحرية المسموحة للدعاة والمبشرين بالمشروع الإسلامى ، ونظراً لتوغل الأمراض وعوامل تداعياتها فى الأمة .

ثالثاً : رهن المشروع الإسلامى - بمنطلقاته السياسية - مستقبله إلى حد ما بمدى بروز وتضخم الفعل الخارجى والمؤثر منه من خارج الأمة والمحلى منها ، كما حدد فعاليته وقصرها على استثمار فرص للاحتجاج والرفض ، كما تحدد لمدى بعيد طبيعة جمهوره ومؤيديه ، من الشباب والمثقفين . وإذا كانت مرحلة الاحتلال بخطابها التعبوى والجهادى قد أمكن التغلغل لمختلف الطبقات ، فإنه بعد زوال الاستعمار ضعف عامل تحريك الشعب ، إلا فى الظروف التى تنتعش فيها عوامل الاحتجاج والرفض ، كضغوط خارجية أو اقتصادية .

رابعاً : ربما ساعد على ظهور هذه الهوة ، والتفاوت بين المنطلقات ، هو اعتماد التنظيم والتكوين بديلاً عن الأمة كإطار تربوى ، فالتكوين هو صانع التغيير ، ومع محدودية فرصة الاستمرار فى البناء والتكوين ، من حين لآخر ، ظلت الأمة تنمو وتكبر ، وتنمو وتتضخم معها عوامل ضعفها وتحللها ،

وقابليتها للاستبداد والتسلط ، مما شكل بعد ذلك عبئاً ضخماً ، على حاضر ومستقبل المشروع الإسلامى .

خامساً : مع استمرارية السير فى اتجاه واحد ، فى إطار التعامل مع فعل الآخر ، ودون امتلاك عنصر المبادرة ، ودون وقف عملية استنزاف الذات ، تصبح مبادرة فعل الآخر هدفاً فى حد ذاتها ، تستدرج به الخصم - نحن - حيث شاءت أن توجهه ، ومن ثَمَّ تستنزف طاقاته ولن يفوت على الآخر أن يضع طُعماً أو صيداً يغرى بالاستمرار .. فى المقابل تضيق دائرة الإنجاز عندنا وفى المحيط الذى يسمح بطاقة الانفعال ، ورد الفعل المناسب ، وهكذا تكون أفعالنا من صنع الآخرين ، بدلاً مما توليه احتياجات الأمة .. وتدور أفعالنا فى فلك الآخرين ، ونحن نصر على التصدى والتوغل وربما بحُجَّة الأولويات .

سادساً : ثمرة أخرى يجتنيها الآخرون من حصاد تشاغلنا فوق العادة بالبُعد التآمرى ، وتحول ذلك إلى سلاح من أسلحة الحرب النفسية ضدنا ، مما جسَّد حالة العجز والإحباط فى نفوس الأمة ، ولم يعد بالإمكان إلا التسليم بإرادة الخصم والرغبة فى كسب وده ، ومن هنا تصبح عملية ملء أسواقنا الأدبية والإعلامية بالمطبوعات التى تتحدث عن قوة الخصم وسيطرته على مقدَّرات الأمور فى العالم ، وعرض سيناريوهات التخطيط والتآمر ، وتحريك الأحجار فوق رقعة الشطرنج ، يصبح أغلب ذلك يصب فى هذه الدائرة ، كما أنَّ الاستغراق فيه سلاح ذو حدَّين .

* *

وعند استعراض أثر هذا الانطلاق الأحادى على ملامح الدعوة الإسلامية وإطارها العام فى العقود القليلة السابقة ربما نلاحظ الآتى :

أولاً : على منظور القضايا المتبناة ، نجد أن المشروع الإسلامى - فى أغلب خطابه - متوجه للآخر ، سواء غير المسلمين منهم أو المسلمين المتأثرين بتيَّارات التغريب والعلمنة ، وفى محاولة لصد الهجمة الشرسة التى استهدفت تشويه

الإسلام أو تفريغه ، فانصب معظم الاهتمام على التعريف والدعوة للنظام الإسلامى ومن خلال عرض الإسلام بمحاسنه وشموليته .

ثانياً : فى إطار الحديث عن محتوى الإسلام ومضمونه وعلومه ، جاء التركيز - على الأغلب - على القضايا الكلية ، وتأجيل الانشغال بهموم التناول المشوَّه - من المسلمين - لجزئيات الدين وفروعه ، وصدى لأولوية التعبئة ضد إفرازات الآخر .

ثالثاً : إعطاء دوراً هامشى للإصلاح الداخلى ، وتحميل الحكام مسئوليته .

رابعاً : تضاؤل فكرة الدعوة بالإطار التبشيرى فى الداخل والخارج ، واستبدل بها مفهوم الدعوة للتنظيم ، أو الدعوة للنظام السياسى ، ومن ثَمَّ تم تسييس كل وسيلة دعوية ، أو تسييس العلماء ، فتحول الوعى الدينى إلى وعى فكرى (فى مقابل الغزو الفكرى) ، وسياسى (فى مواجهة منظومة التآمر) .

خامساً : فى محيط تهميش إجراء التغيير الاجتماعى ، تم إغفال دور الدعوة العامة وبالتالى لم تحظ بالاهتمام وسائل الدعوة الشعبية بمعطياتها وإفرازاتها وفى مواجهة الأمراض الاجتماعية ، وتشوه التفكير الدينى ، وفى هذا الإطار نجد :

(أ) إهمال الوسيلة التعليمية الشعبية ، ودور إحياء مجالس العلم ، فى مواجهة الجهل والأميِّة المتفشية ، وما يجعل هذه الوسيلة قابلة للتطوير والإبداع .

(ب) إهمال أمر تصحيح العقائد ومفهوم العبادة عند عامة المسلمين ، وكل ما يصب فى إصلاح علاقة المسلمين بربهم وبدينهم ، وذلك من خلال إحياء فقه الدعوة العامة .

(جـ) إغفال دور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - عملياً - ودوره فى إجراء التغيير الاجتماعى ، مما كان له الأثر فى استفحال الأمراض الاجتماعية ، وضعف داعى الإنكار عند المسلمين ، فضلاً عن تجرؤ - الأغلبية - على المنكر،

مما أنتج فساد العُرف الاجتماعى . وما ضاعف ذلك ، سلبية العمل الإسلامى ، إما بدعوى هامشية هذا الأمر ، أو جدولته فى مهام ما بعد قيام الدولة ، فضلاً عن غلبة السرية على طبيعة العمل الإسلامى .

والمعنى هنا إيجاد السبيل نحو تنمية الحس الإنكارى ، ومن ثمَّ المسئولية الاجتماعية عند الأفراد والجماعات ، وذلك بإحياء فقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشيوعه كإطار للوعى الاجتماعى ، ولا يُقصد بالطبع تلك الممارسات المتعسفة فى التطبيق وممارسة سُلطة الدولة فى التغيير بالقوة .

* *

وتبقى قضيتان نحب أن نذكّر بهما على هامش هذا الفصل :

القضية الأولى : التفسير الإسلامى لهزيمة الأمة

مع أن هزيمة الأمة - أى أمة - وانتكاس حالها يرجّع دائماً إلى عاملين ، أحدهما: قوة الخصم وفعالية سلاحه ، والثانى : يعود إلى ضعف الأمة وقابليتها للهزيمة ، فإن التفسير الإسلامى ، يكاد يقصر الأمر على العامل الثانى فقط ، أى أن هزيمة المسلمين تأتى - غالباً - لما كسبت أيديهم ، ومن ضعف حلَّ بهم .

ومن هذا المنطلق ، عزى القرآن سبب هزيمة المسلمين فى غزوة « أُحُد » و « حُنَين » إلى أنفسهم :

قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] ، و ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [2] .

---

(١) آل عمران : ١٦٥ (٢) التوبة : ٢٥

وحين نبّأ الرسول ﷺ بمرحلة الضعف وتجرأ الأعداء وتداعيهم على المسلمين ، عزى هذا الأمر إلى نخر خبيث فى داخل الأمة ، حيث قال : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » ، فقال قائل : أوَ من قِلّة نحن يا رسول الله يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنّ الله المهابة من صدور عدوكم ، وليقذفنّ فى قلوبكم الوهن » ، فقال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » [1] .

فإلى أى مدى نخر هذا الداء فى الأمة ، وأى جهد بُذل فى تتبع هذا المرض ، وما أسباب العدوى ، وما هى مدة حضانته ، وما السبيل للتداوى منه ؟؟؟

وهذا كتاب أبى بكر وعمر إلى أمراء المسلمين فى معركة اليرموك ، على إثر ما وقع فى المسلمين من هلع عند ملاقاتهم جيوشاً لا قِبَل لهم بها ، حيث جاء فى الكتاب : « أنِ اجتمعوا ، وكونوا يداً واحدة ، والقوا جنود المشركين ، فأنتم أنصار الله ، والله ناصر مَن نصره ، وخاذل مَن كفره ، ولن يُؤتَى مثلكم عن قِلّة، ولكن من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا منها » [2] .

ثم هاهو ذا القرآن يحدد بصراحة ، ويضع أيدينا على أقوى الأسباب فى تبدل النعمة ، وبما يؤصل قانوناً اجتماعياً هاماً ، فيقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [3] .

ومن هنا كان الطريق لا بد أن يبدأ من الأنفس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [4] ، وليبدأ التغيير من داخل الأمة ، فلا تبعثر الجهود ، ولا تبدد الطاقات .

* *

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) إلى الإسلام من جديد - للندوى .
(٣) الأنفال : ٥٣
(٤) الرعد : ١١

القضية الثانية : النفر فى اتجاهين لا اتجاه واحد

فى هذا الجو الجهادى القوى الصدى والمنبعث من سورة التوبة ، وما له من أثر من استجاشة النفوس ، وما يحملها على نيل هذا الشرف ، والخوف من أن لا ينالها هذا الفضح ، ووقوعها تحت طائلة هذا التعريض ، ومن صور التبكيت والتقريع والتهديد الشديد الذى طال المنافقين والمتخلفين عن الجهاد والفتح ، إثر عدم استجابتهم لهذا الأمر بالنفر والجهاد : ﴿ انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) .

وفى ثنايا هذا الجو ، فلا تكاد تودعنا الصورة ، حتى تستكمل فى أذهاننا ، الصورة المتوازنة للنفر والجهاد والحركة ، فالنفر والاستنفار ليس فى اتجاه واحد ، وفى اتجاه خارج الأمة – كما هو متوقع – ولكن تأتى الآية لتضيف بُعْداً آخر لحركة النفر ، فتفيد بأن النفر مطلوب للداخل أيضاً ، كما أنه لا يغنى أحدهما عن الآخر ، وهكذا جاءت دلالة قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِينَفِرُواْ كَافَّةً ، فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٢) .

وليتأكد لدينا جملة من المعانى المهمة قد يكون من الضرورى أن يستحضرها دائماً الدعاة والمصلحون وعلى سبيل المثال :

أولاً : تأتى أهمية النفر فى اتجاه الداخل ، من ضرورة استيفاء حالة الصحة والعافية التامتين للأُمة ، ولكمال دورها الرسالى ، وكيف أن هذا الاستنفار المكمل يصب فى محيط تنشيط العملية التعليمية والتفقه فى الدين ، ومدى أهمية ذلك فى بناء الأمة ، وسلامة جبهتها الداخلية . وخاصة أن الأمة الجاهلة لن تغذى الجهاد فى اتجاه الخارج يوماً ما ، فضلاً عن قابليتها هى لأن تُغزَى ، ومن حيث انتشار الجهالة والخرافة .

---

(١) التوبة : ٤١ — (٢) التوبة : ١٢٢

ثانياً : وتأتى أهمية أخرى ، فى مراعاة التوزيع والتناسب بين المهام والضرورات : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ ، فالتوزيع متوازن على مستوى الفِرَق ، ومن حيث ضرورة تغطية مختلف المناطق ، فلا تكاد تخلو ثغرة من معلم أو فقيه ، كما تأتى أهمية مراعاة هذا التوزيع إلى درجة تطغى فيه إحدى المهام على الأخرى فينفرط المعيار ، كأن تتجه الجماعة كلها لعملية التفقه أو العكس .

ثالثاً : ثم لا تدعنا الآية - كذلك - دون أن تحدد لنا أهداف وخصائص العملية التعليمية ، ومن ثَمَّ دور الفقهاء ، فحتى لا تنقلب الوظيفة التعليمية ، فتعمل على ترسيخ الحالة المرضية للأمة حين مرضها ، ومن خلال توظيف الفقه والتعليم فى إشاعة القضايا الجدلية ، التى تميت القلوب والنفوس ، فيأتى قوله تعالى : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ ليحدد الغرض الأساسى للعملية التعليمية ، فى أمة حية متحركة ، ومن خلال الاضطلاع بدور « الإنذار » ومن حيث أهميته فى يقظة الأمة الدائمة ، فلا تغفل يوماً ما عن رسالتها ، فيحق عليها ما آلت إليه القرى الظالمة .

وإطلاق لفظة « الإنذار » ، وبدون تحديد مصدر الخطر ، يفيد مطلق الخطر ، بدون تحديد أو قصر ، وإن دلت عملية الإنذار من عقاب الله الدنيوى والأخروى لعدم القيام بمقتضيات الإجابة لله ورسوله كل دواعى الخوف والإنذار .

ومن هنا تأتى أهمية الوعى الذى يجب أن يكون عليه فقهاء الأمة ، فهو وعى من كل دواعى الخطر ، ولأهمية الحساسية العالية فى التشخيص للأمراض والأخطار الداخلية والخارجية على وجه سواء ، كما يظهر أيضاً أهمية الارتباط والتنسيق بين المرابطين على كل الثغور ، وبين فقهاء الداخل والمرابطين على الحدود ، فلا تمزق ولا تشرذم لمجاهدى الأمة .

وأخيراً .. يظهر لنا دليل آخر على سلامة العملية التعليمية ، تبثها إلينا إيحاءات قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ، ومدى مردود تلك العملية على

حالة التأهب التى شملت الأمة . وحين يصل العلماء والفقهاء بالأمة بتلك الحالة من التأهب والحذر الدائمين ، وبدون استسلام لحالات الغفلة ، ودواعى الوهن أو ركون إلى الدنيا ، حينئذ تكون العملية التعليمية قد استوفت شروطها ، ويكتمل لأمة المؤمنين شروط الصحة والتوفيق لإتمام الدور والمسئولية .

رابعاً : ومما ينبغى الحذر منه ، أن يتقلص هذا الدور ، أو يتعطل أو يتبدل أحد مقتضياته ، وتحت أى ظرف ، فالحركة الشاملة وفى جميع الاتجاهات ، وحين يعطى نفر من المؤمنين انطباعاً مشوهاً لأى عطاء ، فى أى من الميادين ، ميدان الجهاد أو ميدان التعليم ، فلا ينبغى أن نعطل هذا الدور أو نغلق هذا الميدان ، وليكن من الأولى أن نرد الواقفين على هذا الثغر - رداً حميداً - إلى الوضع الصحيح وحتى تستمر مسيرة التوازن .

* *

وهكذا .. فإذا كان الداء يبدأ من الداخل ، والتغيير يبدأ من الداخل ، وفعالية الدفع ومقاومة الغزو من الخارج يبدآن من تأمين الداخل ، فلماذا نقصر حركتنا على الدوران فى رد فعل الآخرين ؟!

* * *



الباب الثانى

فى المنهج

- الوجهة السلَفية .. بين وصل الماضى وصناعة الحاضر .
- العمل الجَماعى .. بين التمكين للقدوة والاعتماد على الأتباع .

* * *



الفصل الأول

الوجهة السَلَفية

بين وصل الماضى وصناعة الحاضر

العودة إلى الماضى ، والنظر فى الأصول ، واستعادة التاريخ ، على أن يكون ذلك أصل فى تأصيل مسيرة الحاضر ، وتنقية المناهج ، واستلهام العبر والدروس ، فيه دلالة على صحة التوجه ، وإيجابية المقصد ، وسلامة الوصل ، وكما يصب فى قوة الشهود للحاضر .

وعندما تكون العودة إلى الماضى ، بكاء على المفقود ، وانكباباً على الآثار، وترديداً للأخبار ، ومحاكاة للرسوم ، وافتخاراً بالانتساب ، وكفى ، ففيه دلالة على الهروب من الحاضر ، والفشل فى المواجهة ، وعدم القدرة على الإبداع ، ومن ثمَّ يكون وصل ذلك الماضى على حساب الحاضر والمستقبل .

وأن يحرص الدعاة اليوم على وصل حاضر الأمة بماضيها ، وأن يقفوا بها عند منطقة الخيرية فى القرون الإسلامية ، وأن يتنافسوا على رفع راية السَّلَف ، وأن يتزاحموا على اللحاق بالقافلة ، ومن ثمَّ الرغبة فى التجاوز بالأمة تلك التراكمات الثقيلة من التشوه فى الاعتقاد والفكر والسلوك ، إلى حيث الصفاء فى الاعتقاد والأصالة فى الفكر والقدوة فى السلوك .

أن يكون ذلك ديدن الحركات الإسلامية اليوم ، فإن ذلك من خير الطالع للأمة ، ومن إرادة الخير لها من الله ، ومن ثمَّ فإنها علامة مضيئة فى مسيرة الإصلاح والعودة .

ولِمَ لا وحزام الأمان فى الاقتداء قد رُهِن بخير القرون ، والتى أشار إليها

الرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم يجيئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » [١] .

وخيرية هذه المرحلة تأتى من كونها المرحلة التى حوت خير الأتباع والمقتدين ، والذين تزامن وجودهم مع نزول الدين فى عصر الصحابة ، ثم هؤلاء الذين أخذوا عنهم وفهموا عنهم من التابعين وتابعيهم ، وحيث نقاء النبع فى الأزمان وقبل مرحلة الاختلاط بثقافة العجم .

وكما يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « مَن كان مُستناً فليستن بمن قد مات ، فإنَّ الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ ، أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكهم بدينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

ولقد وضحت أهمية تميز الاقتداء بهؤلاء ، عندما طرأت على الساحة مسألة آيات الصفات فى القرآن ، فمَن اهتدى بهَدْى من عاش فى القرون الأولى ، بتفسير هذه الآيات بدون أى تأويل أطلق عليه أنه أخذ برأى السَلَف ، وأنه من السلفيين (وذلك على عكس مَن جاء بعدهم فإنهم أوّلوا وقيل عن رأيهم بأنه رأى الخلف) . ومن هنا نشأت السَلَفية زمانياً فهى : « تطلق على المجموعة المتقدمة من أمة الإسلام ، فى فترة تاريخية تضم الصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى ، فأصبح مذهب السَلَف عَلَماً على ما كان عليه هؤلاء ، ومَن تبعهم من الأئمة الأربعة ، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن المبارك ، والبخارى ومسلم وسائر أصحاب السنن ، الذين اتبعوا طريق الأوائل جيلاً بعد جيل ، دون مَن وُصف بالبدعية » [٢] .

*   *

---

(١) صحيح البخارى عن ابن مسعود .

(٢) كل ما جاء تحت هذا التقسيم مقتبس بتصرف من البحث القيم : « الاتجاه السَلَفى بين التأصيل والمواجهة » للدكتور راجح الكردى (ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر ، البحرين ، ١٤٠٥ هـ) .

وإذا كانت إيجابية التوجه للماضى ، تعتمد على نوع التعامل مع هذا الماضى وحقيقة الانتساب لمحتواه ، كذلك فإن العودة إلى السَلَف شعار يحتاج إلى تحقيق للوقوف على إيجابية التوجه أو عدمه ، ومن ثَمَّ حقيقة الانتساب إلى مضمون السَلَفية ، وإلا فما المغزى من رفع هذا الشعار ؟

وهل معنى أن نعود إلى تجربة مضيئة فى ماضينا الإسلامى أن نجهل حاضرنا ونهجره ، أو نتعامل معه بغير مسمياته ، ونتحاور معه بلغة غير لغته ، أو نتعامل معه بمعطيات أخرى غير معطيات واقعة ، فنتجاهل علله وأمراضه ، فضلاً عن أن نواجه تلك العلل والأمراض بما لا يناسبها من أدوية وعلاجات ووسائل فعّالة .

أمامنا إذاً سَلَفيتان [1] :

* السَلَفية المنهجية :

« وهى سَلَفية استيعاب منهج السَلَف القائم على أصولية فهم القرون الخيِّرة وطريقة نهجهم ومنهج استدلالهم فى فهم الإسلام ومواجهة مستجدات الحياة ، فى التعامل مع الفكر الوافد الناشئ عن اتساع رقعة الإسلام والاحتكاك بالأعاجم » .

* سَلَفية مضمون ومحتوى :

« وهى اتباع لما أنتجه هذا المنهج السَلَفى الأصولى من فكر فى الاعتقاد والفقه ، فى زمن ماضى بكل من معطياته وقضاياه » .

وبالتالى فالسَلَفية المنهجية أوسع لأن المنهج الذى أنتج فكراً فى زمان يمكنه أن ينتج فكراً آخر وفى مواجهة ظروف جديدة مع المحافظة على الأصولية المنهجية .

---

(١) كل ما جاء تحت هذا التقسيم مقتبس بتصرف من البحث القيم : « الاتجاه السَلَفى بين التأصيل والمواجهة » للدكتور راجح الكردى (ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر ، البحرين ، ١٤٠٥ هـ) .

فالفهم المنهجى للأصولية السَلَفية يفتح الباب لامتداد الإسلام بأصليه الرئيسين : الكتاب والسُنَّة ، وأصول الفهم لخير قرون هذه الأمة ، إلى قيام الساعة ، دون التحكم فى إسقاطات الفهم المستجدة المتأخرة بدعوى أنّ هذا سَلَفية شرعية وما دونه بدعية ضالة .

وهذا هو روح المعنى الذى أكده منهج القرآن والسُنَّة : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ الآية [1] ، و « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسُنَّتى » .... الحديث .

فالسلفية المنهجية إذاً :

* ليست تكرار للقضايا ، كما أن تكرار القضايا التى أثارها السَلَف فى عصر ما ، لا يعطى لأصحابه صحة الادعاء بأنهم سَلَفيون وإلا فأين المعاصرة من خلال تلك السَلَفية ؟ فضلاً عن انتفاء التقليد عند السَلَف . ومن السَلَفيين السابقين أمثال الإمام ابن تيمية وابن عبد الوهاب - رحمهم الله تعالى - مَن نفوا عن أنفسهم أنهم مقلدون برغم احترامهم للإمام أحمد بن حنبل وموافقتهم لجُلّ آرائه .

* وهى ليست كذلك محدودة بفهم الأفراد والهيئات ، والجماعات والتنظيمات مهما كانت أهميتها وعلا شأنها قديماً وحديثاً ، وإنما دين الله تعالى وكتابه الكريم وسُنَّة رسوله ﷺ هو المرجع لكل مسلم ، وليست لطبقة معيَّنة من العلماء أو مذهب محدود من الفقهاء ، شريطة انضباط المسلمين بقواعد المنهج السَلَفى للإسلام ، بفهمه الأصولى الصافى .

إذاً فمهوم الالتزام السَلَفى ، وفق السَلَفية المنهجية ، القائمة على أصولية الفهم والاستيعاب ، والقائمة على مفهوم عالَمية الدعوة وخلودها هى :

---

(١) النساء : ٨٣

فهم النصوص من القرآن والسُنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ ، بلغة عربية مبينة دون الدخول إليهما بقوالب فكرية سابقة ، قائمة على فكر دخيل ، أو أعجمية فى اللسان ، وأخطر منها أعجمية فى القلوب ، التى إن فهمت لغة القرآن والسُنَّة عاملتها بظاهرية سطحية .

معنى ذلك أننا إذا حافظنا على أصول المنهج فى استنباطنا للمعانى من الكتاب والسُنَّة فى مسألة معاصرة ، ثم خرج أحدنا بفهم أو رأى وخالفه فيه آخر مع حرصه على الأصول نفسها مع تباين الأفهام دون تحريف ولا تأويل فاسد ، فلا يبرر ذلك أن يدَّعى أحدنا السَلَفية ويرمى أخاه بالبدعية .

إذاً فالسَلَفية ، سَلَفية أصولية ، منهجية أصيلة الانتماء ، عصرية المواجهة ، تجاوزية الاختلاف [١] .

« وحيث إن السلفية خاضعة لمنهج ، وهو ما يسميه العلماء اليوم بقواعد تفسير النصوص ، وهو ما كان يسمى بعلم أصول الفقه ، وبدون هذه القواعد لا يستطيع إنسان أن يتبصر بمعنى نص من النصوص ، ولا أن يدرك متى يُلْزِمه النص بالثبات ، ومتى يدعوه إلى المرونة والتحرك والتطوير والتبديل . كما أن الذى وضع المنهج هم علماء المسلمين جميعاً ، ولم يكن من إنتاج فئة معيَّنة اسمهم « المذهب السَلَفى » وهذا المنهج فيه من القواعد ما هو متفق عليه فلا يجوز أن يحيد عنه إلا منحرف لا أقول بدعى بل هو ضال ، ولا أقول غير السَلَفى . وفيه من القواعد ما لم يتفق عليه مكتشفو هذا المنهج ، فمَن اتبع أحد الشقين فى هذه القاعدة ، فإن دائرة السَلَفية تشمله ، ومَن اتبع الشق الثانى فإنّ دائرة السَلَفية تشمله أيضاً » [٢] .

إذاً فأول إيجابية يجب أن نستوعبها ونحن فى توجهنا السَلَفى – وضابطنا الأول – أن يكون توجهاً منهجياً ، فلا يستغرقنا التوقف طويلاً عند المفهوم

---

(١) انتهى الاقتباس بالتصرف من المرجع السابق للدكتور راجح الكردى .

(٢) من تعقيب للدكتور سعيد رضمان على الدراسة السابقة بنفس الندوة .

زمانياً - إعجاباً واعتزازاً - أو لنكرر المعروض والمحتوى ، محاكاةً واستمتاعاً ، كذلك يجب أن يكون توجهاً مقيَّداً بأصول الكتاب والسُنَّة وقواعد الفهم والاستدلال على منهج السَلَف الصالح ، وبما تملك - هذه القواعد - من سعة تستوعب تفاعلات الزمان والمكان ، وتتجاوز اجتهاد الأفراد والجماعات الخاضعة لمعطيات واقعها وبيئتها المحدودة ، فضلاً عن أن يكون ذلك توجهاً مذهبياً ، يصنع الفُرقة ، ويدّعى احتكار الصواب فى أمور تسع الخلاف والاجتهاد ، ويستعيد معارك لسنا طرفاً فيها ، وجنبنا الله شهودها .

وإذا كنا فى حاجة لتقسيم يصنف المنتمين للإسلام من حيث موقفهم منه ، فيسعنا تقسيم واحد وخاصة فى هذا الجو من التشتت والضياع الذى يعيش فيه المسلمون ، يكفينا هذا التقسيم الأصل فـ « المسلمون كلهم فريقان : فريق ملتزم وفريق غير ملتزم ، والملتزم أيضاً قسمان : ملتزم معترف بتقصيره وخطئه فندعو الله له بالهداية ونشفق عليه ، ونقول : هذا إنسان غير ملتزم . ونسأل الله عَزَّ وجَلَّ له الهداية .

أما غير الملتزم ، المتبجح بعدم الالتزام فهذا الإنسان نقول عنه : ضال ، تائه. أما الطرف الثانى وهم الملتزمون فكلهم سَلَفيون وكلهم آخذون من رسول الله ﷺ ويعذر مَن اتخذ لنفسه طريقاً لم يتفق فيه مع فئة من فئات المسلمين المجتهدين » [1] .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [2] .

وقبل أن ننتقل إلى ضابط ثان لحركتنا أو لتوجهنا السَلَفى ، قد يكون من المفيد أن نتذاكر ونستحضر بعض معالم المنهج السَلَفى :

---

(١) المرجع السابق .

(٢) فاطر : ٣٢

أولاً - صفاء التوحيد :

فهذه أولوية الأولويات ، حيث المحافظة على سلامة الأساس الأول للدين والعقيدة ، من أدران الشرك ونواقض التوحيد ، ومن شطحات المبتدعة ، كذلك من غبش التصور ، وعوارض الفكر الطارئ الناتج عن الاحتكاك بثقافات غير المسلمين ، ومع استحضار النهج القرآني ومنهج السّلف الصالح في التعامل مع مسائل الاعتقاد ، ومن خلال التصحيح والممارسة على أرض الواقع ، لا باستحضار عوارض الماضي في غير محلها .

ثانياً - الاستقامة وحسن الاتباع :

وقد خط السّلف شرائط هذا المعلم :

١ - فلا تقليد ولكن اتباع بدليل « لا تقلدوا الرجال دينكم » ، وخاصة ما وجدت القدرة على ذلك ، فلا جمود ولا تعصب .

٢ - التعبد بما صح من الأدلة والحذر من المدسوس على السُنَّة ومن الضعيف منها والموضوع ، فضلاً عن بذل الجهد في تنقيتها .

٣ - الحذر من الابتداع في الدين ومتابعة الهوى ، مع الإلمام بطرائق البدعية وضوابط التبديع .

٤ - التزكية على منهج السلف الصالح تكون بتأسيس قواعد السلوك وإعمال القلوب على المنهج النبوي على الكتاب والسُنَّة ، وبعيداً عن تأويلات منحرفة الصوفية وشطحاتهم .

ثالثاً - الفاعلية الجهادية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وآثار هذا المعلم ، تجاوزت أفراد الصفحات والتدوين في بطون الكتب ، في إثبات أولوية هذه الفرائض والإفاضة في شرح شرائطها وضوابطها . إلى أن يسجل لنا التاريخ ملاحم عملية في المواجهة والتواجد والدفع والابتلاء والتفاعل مع مقدمة الصفوف ، والتصدر لمواجهة الفتن والتحديات الداخلية والخارجية ،

فيحفظ مظاهر عملية متعددة عملية فى إمضاء هذه الفرائض ، وإحيائها مع مدار الزمن .

فنجد إما ثباتاً أمام محنة ، (كالإمام أحمد بن حنبل وفتنة خَلْق القرآن) ، أو ثباتاً ومواجهة لضلال وانحراف الأمراء (ابن حنبل والنووى والعز بن عبد السلام) ، أو دفعاً وتحميساً لجهاد الرأى العام ضد الغزاة (العز بن عبد السلام وابن تيمية) ، وإما حرباً على الفرق الضالة والمنحرفة والمذاهب الباطنية ، أو فاعلية فى مواجهة البدع وإقامة دولة الإسلام (ابن تيمية وابن عبد الوهاب) [١] .

ولاستكمال شروط التوجه السَلَفى ننتقل إلى الضابط الثانى ..

*

● من التجريد إلى التنزيل :

إن استيعابنا الصورة الصحيحة للإسلام الغائبة عن أذهان المسلمين ، ثم الوقوف على مدى مفارقتها لواقع المسلمين اليوم لم تعد هى الغاية الآن وحسب .

كذلك لم يعد بذل الجهد وإنفاق الوقت فى بيان وشرح وتوضيح عناصر الحق والخير وكل ما يُظهر الحقيقة الإسلامية فى أروع صورها ومع أوجهها المختلفة العقدية والاجتماعية والأخلاقية ... إلخ ، كافياً لكى ينتقل المسلمون للعمل بمقتضيات هذه الحقيقة ويدعوا ما هم عليه من فساد وانحراف .

كذلك لم تعد المشكلة فى استحضار كم من النصوص الصحيحة والكافية ، لنقد سلوك المسلمين ، ثم الحكم على مدى انحرافهم عن السوية ، وعن طريق سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، بل أصبحت « معضلة المسلمين اليوم ، بل ومنذ أوائل هذا القرن ليست هى البحث عن صورة الحق التى ينبغى أن يطبق فى

---

(١) قدم الشيخ حسن البنا صياغة معاصرة لمعالم المنهج السَلَفى من خلال رسالة الأصول العشرين ، كما حاول إلى مدى بعيد أن يقدم من خلال مدرسته مشروع تطبيقى منهجى للمنهج ، وإن احتاجت بعض جوانب الرسالة للانفاذ والتفرغ على أرض الواقع الدعوى ، وبصورة تثمر على الممارسات الاعتقادية والتعبدية لمجتمعات المسلمين إلى المستوى التى أوصت بها الرسالة .

حياتهم ، لأن تلك الصورة تحفظها فى جوهرها النصوص ، وبعض من الجهد فى إجلاء الصورة (وقد أفاض الدعاة فى بذل هذا الجهد) ، ولكن مشكلتهم هى : كيف العبور من هذا الواقع إلى ذلك الحق ، ليصير المثال واقعاً ، ويحل الحق محل الباطل .، ليصير المثال واقعاً .

إن مشكلة الإنسان عموماً ليست هى معرفة الحق بقدر ما هى توطين النفس على انتهاجه ، فالإنسان كائن حى وهو أكثر الكائنات الحية تعقيداً ، وبذلك يكون له تفاعل معقد مع العناصر الواقعية للبيئة التى يعيش فيها ، وتمتد جذوره فى تلك البيئة وتتمكن روابطه فيها بحيث يصبح انتقاله من وضعيته الواقعية فيها - إذا كان على باطل - إلى وضعية صحيحة أمراً عصيباً يستلزم جهداً عظيماً ، هو ذلك الجهد الذى أنفقه الرسول ﷺ - وهو المؤيَّد بالوحى - طيلة ثلاثة وعشرين عاماً ليقطع بالناس هوة ما بين الواقع الجاهلى والحق الإسلامى » [١] .

وعندما اختزلت هذه الهوة ما بين الصورة المثالية للتطبيق الإسلامى والواقع الذى عليه المسلم المعاصر ، عن طريق الرغبة الشديدة من الشباب فى استيعاب هذا التطبيق جملة واحدة ، وبالعزم على هجرة واقعهم الفاسد ومغادرته إلى غير جعة . أدّى ذلك إلى أن يقول : « نشأ عن هذه العزيمة على الانتقال من الواقع إلى الحق عداء شديد لهذا الواقع وتنكب عنه ، ورفض جملى له ، وتمخض كل ذلك عن منهجية فى التغيير تقوم على إلغاء الواقع الفاسد ، ورفضه جملة ، وقطع أى صلة حوارية معه ، للتأدى من ذلك مباشرة إلى حياة تقوم على الحقيقة الإسلامية المثلى ، وتراوحت الأنظار فى ذلك بين التطرف فى الرفض والإلغاء وبين الاعتدال فيهما بما أسفر عن نزعات مترددة بين الحكم على هذا الواقع بالكفر ، وبين الحكم عليه بالخطأ الذى لم يبلغ الكفر ، كما أسفر هذا الرفض

---

(١) دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية : د . عبد المجيد النجار (من أبحاث مؤتمر الندوة العالمية للشباب ، رجب ١٤٠٢ هـ) .

للواقع عن نشوء مظاهر جمة للتوتر النفسى ، والاضطراب الداخلى ، والخلل فى التوازن للقوام العقلى والنفسى » [1] .

هذا مع أن الإرشادات القرآنية فى منهجية الصراع مع الواقع ، والتربية النبوية التى مثلت الوجه التطبيقى لتلك الإرشادات ، لم تسلك الطريق إلى سيادة الحق بإلغاء الواقع الجاهلى القائم على أساس الباطل ، وحذفه بصفة جملية لتنزيل المثال الإسلامى منزلته ، بل كان بالانطلاق من هذا الواقع إبقاءً على ما تبقى فيه من قيم الخير ، ورفعاً لما فيه من الفساد رفعاً تدريجياً لتحل محله بالتدريج أيضاً صورة الحق فى السلوك ، مراعاة لطبيعة النفس ومشقة الانقلاب الفورى .

وكذلك بدأ الطريق فى مجال العقيدة بتوجيه القرآن بالتأمل فى الواقع المحسوس واستنباط حكمة الصانع الحكيم العليم : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] .

ولم ينطلق من خلال فكر تجريدى متعال عن الأحداث الواقعية ، كما آل فى عصور الانحطاط .

واليوم تعيش الدعوة الإسلامية فى مسيرتها المعاصرة ، وتوجهها السَّلَفى أنماطاً من الخلل فى واقعية الطرح الإسلامى وتناقضه مع المظاهر الواقعية للفكر الإسلامى فى عهوده الأولى .

فمن أين بدأ هذا الخلل ، وما هى أعراضه ، وما شواهده من تجربتنا المعاصرة ؟؟؟

يتابع الدكتور عبد المجيد النجار تطور ذلك الخلل ويرى أنه بدأ مع الفتنة الكبرى والتى بلغت ذروتها فى حرب صِفِّين حيث يرى أنه :

---

(١) المرجع السابق .   (٢) العنكبوت : ٢٠ .

١ - « قد نشأت حينئذ نزعة الخوارج رافضة لواقع الحياة الإسلامية رفضاً مطلقاً ، لعنت علياً وشيعته ، ولعنت معاوية وشيعته ، ولعنت كل مَن لا يرى رؤيتها ويذهب مذهبها » [١] ثم كانت « هذه النزعة الخارجية وخاصة فى صورها المتطرفة إنما هى مظهر لقصور فكرى منهجى تمثل فى ذلك الإلغاء البات لواقع المسلمين الذى ظهرت فيه بوادر الفساد ، والعمل على رفعه جملة ، وتنزيل الحق المثالى منزلته ، دون تأمل فيه وبحث فى أسبابه ، كما كان رسول الله ﷺ » [٢] .

٢ - وبمرور الأيام ، ومع بداية انحراف الفكر العقدى والفلسفى نحو المنهج اليونانى الذى يقوم على التجريد ويغفل الواقع الجارى ، حيث « توطد هذا الانحراف فى القرن الثالث والرابع والخامس على أيدى مَن عُرِفوا بالفلاسفة حينما أفتى حُجَّة الإسلام الغزالى بأن مَن لم يحط بمقدمات المنطق الصورى اليونانى فلا ثقة بعلومه أصلاً ، فأصبح منذ ذلك الحين هذا المنهج التجريدى هو المنهج الغالب رغم حملات المقاومة التى نشأت ضده مثلما فعله ابن الصلاح وابن تيمية والسيوطى . وقد كان من أهم نتائج هذا المنهج أن أصبح الفكر العقدى يتخذ منطلقاته فى البحث من الصورة الفكرية المجردة ، لا من الأحداث التى يجرى بها واقع المجتمع كما هو الشأن فى العهد الأول ، وأصبح هذا الفكر حينئذ عاجزاً عن معالجة ما يطرأ من صور الانحراف العقدى فى واقع المسلمين لتجاهله لهذا الواقع وأسبابه ، وسقوطه فى الجدل النظرى ، وتعامله مع الصورة المجردة » [٣] .

٣ - ومع مظهر آخر ، حين تطور الفكر الصوفى إلى حالات الشطط ، « فإننا نجد التصوف المغالى يقوم على الإعراض عن عالَم الواقع ....، فهو ضرب من ضروب الرفض الجملى للواقع ، والهروب إلى صورة مثالية للحياة بعيدة عنه ، وهو بالتالى قصور عن مكافحة مظاهر الباطل التى تطرأ فى الحياة

---

(١) ، (٢) ، (٣) دور الفكر : مرجع سابق .

الإسلامية ....، وقد أدى ذلك فيما أدى إلى تعطيل عوامل الفعالية فى الحياة الاجتماعية ، فتراخت إرادة الإصلاح وفق الحقيقة الإسلامية ، وآل المجتمع الإسلامى إلى التنصل شيئاً فشيئاً من البُعد الاجتماعى الذى رسمته التعاليم الإسلامية » (١) .

٤ - ثم يتابع الدكتور النجار ، كيف كان نصيب الفكر الشرعى من هذا الخلل فيقول : « أما الفكر الشرعى فقد ضرب فيه الخلل بجذوره أيضاً ، وذلك حينما بدأ هذا الفكر ينحدر إلى الجمود ، ويتقيد بالمذهبية الضيقة ....، فإن الفكر الشرعى أصبح بعد القرن السادس ينحو إلى الثبات فى صوره ومقولاته ، وفقد صلة الحوار بينه وبين صور الحياة ونوازلها الواقعية ، المستجدة على الدوام ، فلم يعد يصنع لتلك الصور المستجدة حلولاً من الأحكام الشرعية تأخذ بعين الاعتبار عناصر جدتها وملابسات تشخصها كما كان فحول الأئمة يفعلون ، وإنما اكتفى بإلباس صور الحياة الجديدة صور الأحكام القديمة فقيّدت بذلك حركة الحياة بقيود من الفكر الشرعى الجاهز ، وأدى ذلك إلى نتيجتين متعاقبتين : قصور عن الحركة الحضارية ، وتوقف عن الإبداع » (٢) .

وهكذا تحوّل الفكر الإسلامى مع تعدد مظاهر الخلل فى واقعيته إلى أن « أصبح غير قادر على أن يوفق بين مراتب النصوص التى تشمل على صورة الحق الإسلامى ، وبين مراتب واقع الحياة الإسلامية المتغيرة ، فيصوغ من تلك النصوص صوراً من الحياة تدمغ صور الباطل الذى ينشأ فى حركة الحياة الإسلامية فتتسق تلك الحياة سوية مندفعة مستمرة كما كان شأنها فى العقود الأولى » (٣) .

ونحن فى سيرنا المعاصر ومع اصطباغ مسيرتنا بوجهتها السَلَفية ، نكاد نلمس هذا الخلل من خلال واقعيتنا التغييرية ، فلا نجد صعوبة فى اكتشاف الجنوح نحو التجريد أو التنظير فضلاً عن المثالية فى تصورنا الإصلاحى .

وإذا كان الخوارج لم يستوعبوا النقلة الكيفية التى أصابت المجتمع الإسلامى - ما بعد الفتنة الكبرى - وحاولوا بتر هذا التحول كلية وإسقاطه ؛ فإن بيننا

---

(١) ، (٢) ، (٣) دور الفكر : المرجع السابق .

اليوم مَن لم يستوعب حجم النقلة التى آل إليها المجتمع الإسلامى المعاصر ، وما زال يعلق بذهن الكثيرين تلك الصورة الراقية للمجتمع الإسلامى المستقر ، ويحاسبون المعاصرون على أساسها وبدون تقديم أو تأخير ، وهذه الكثرة لا تنفك تتعامل مع معطيات المجتمع الملتزم ابتداء ، ولا ترى فى تشخيصها ، ولا يتعاظم فى حسها وتصورها فيما اعترى المجتمع إلا ما يمكن حصره تحت آفات الالتزام ، وما يصطلح عليه من سلبيات الاتباع ، ولذلك فإنها وإن أحسنت معركتها فى ميدان الملتزمين المحدودين ، فلا شك أنها قد افتقدت لغة الحوار ابتداء مع أغلبية المجتمع . ومع الشرائح المتعثرة فى هويتها والمترددة فى التزامها . وخاصة « أن حجم المشكلة التى تواجهها السَلَفية المعاصرة كبير ، ومشاكلها معقدة . والذى تهدف إليه السَلَفية اليوم - كحركة تجديد - أكبر وأضخم مما واجهته السَلَفيات السابقة والتى كانت تعيش فى ظل أوضاع إسلامية عامة ، يعترف عامة الناس بالإسلام ويعيشون أوضاعاً وقيماً وحكماً وأنظمة وفى أوضاع سياسية أوضح ما فيها أنها دولة الإسلام به تؤمن وتحكم ، ولا يمنعها ضعف فى فترة ، أو فساد فى ناحية من أن تجند الجيوش وتعقد الرايات ، لنشر دعوة الإسلام ، والجهاد فى سبيل الله ، وعلى الأقل الدفاع عن بيضة الإسلام وأرضهم وأعراضهم . بينما ضاعت اليوم ، وفى زماننا هذا إسلامية الراية ، وإسلامية النظم ، وإسلامية الأوضاع ، ضياعاً جعل التفكير بأن يكون الإسلام بكتابه الكريم وسُنَّة رسوله الأمين ﷺ أساس الحكم والتوجيه وشعار المعركة ، جريمة وخيانة فى أكثر دول العالَم الإسلامى ، تحاكم عليه قوانين تلك البلاد بالإعدام بتهمة تغيير شكل النظام » [١] .

كذلك يُلاحَظ فى توجهنا المعاصر هذا الميل للتجريد فى عرض الفكر العقدى وقضايا التوحيد ، ومن حيث إثارة المسائل التى أثيرت فى أزمان سابقة ، وبدون أن توجد نفس المؤثرات لإثارتها ، فضلاً عن إشغال الناس بها فى زماننا بلا مبرر - يعتبر مخالفاً لمنهج السَلَف الذى كان يرفض الكلام فيما لا طائل من

(١) الاتجاه السلفى - مرجع سابق .

ورائه ، فضلاً عن القصور فى مواجهة ما طرأ من انحرافات عقدية معاصرة . ومن الضرورى هنا أن ننوّه إلى أننا مع مَن يرون إفراد العناية الخاصة والأولوية للبناء العقيدى ، وتصفية نواقض التوحيد فى الأمة إنطلاقاً من أولوية تغيير ما بداخل ذات الأمة ، وعلى أن يكون من خلال منهج دعوى لا تجريدى ، يستحضر المواقع جميعاً وجميع جوانب الانحراف التى ألمّت بها الأمة .

وأخيراً .. فإن قدر ما يصيب الفكر الشرعى - فى توجهنا السّلفى - من نصيب فى ذلك القصور ، ومن حيث تلبسه بآفة الأحكام الجاهزة ومحدودية القدرة على تنزيل النصوص على واقعنا - بمعطياته الخاصة - ثم مواجهة المشكلات وطرح الحلول فضلاً عن الوسائل ، قد لا يخفى على أحد منا .

والآن ننتقل إلى الضابط الثالث ..

*

● من السّلفية القضائية إلى الإنقاذية :

لقد كان من رواسب الاستغراق فى سّلفية المحتوى والتقليد ، والوقوف طويلاً على آثار وقضايا مراحل سابقه ، وجود مؤثرين هامين على مظاهر الممارسة المعاصرة :

١ - انتهاج لغة قضائية مع المجتمع ، ذات لهجة إنكارية وانتقادية شديدين ، ومن موروثات تلك اللهجة التى كانت سائدة فى أزمان سابقة ، وإن اختلفت المعطيات كما أسلفنا ، حيث كانت سابقاً إفراز لمعركة التنافس بين المذاهب ، التى كانت تظلهم جميعاً مظلة الإسلام . أما الآن ، فخطورة سيطرة الموقف القضائى على الخطاب السلفى والاكتفاء بتوزيع الأحكام يمنة ويسرة - وسواء أكان من منطق الإعذار والبراءة أو تحت أى مبرر آخر - أنه ألغى المهمة الرسالية لدى أصحاب الحق ، ومما زاد الهوة بينهم وبين المجتمع من ناحية ، وبين المجتمع وبين الإقدام على الحق من ناحية أخرى . أنه ليس من الصواب عدم إدراك ذلك الاختلاف بين حوار الأمس وحوار اليوم ، وبين معركة يتنافس أطرافها على

ادعاء الصواب والحق ، وبين أخرى ، أطرافها المجتمع ككل والحق ككل ، وقد أصبح المجتمع فى أمس الحاجة لمن يأخذ بيده ، لا مجرد أن ينكر عليه .

يقول الدكتور عبد الحميد سليمان : « من الخطأ الذى يقفه بعض الدعاة هو تصرفهم من منطق قانونى قضائى بحت تجاه الناس والمجتمعات ، فهم لا علاقة لهم حقيقة بحياة الناس ، ولا عون منهم للناس ، وكل دورهم هو إصدار الأحكام الدامغة ضدهم ، متناسين أن من أهم وظائف الدعوة هو العون والتوجيه الأبوى، الذى يأخذ بأيدى الناس إلى جادة الصواب والحق ، ويقيل عثرتهم ، خاصة عثرة صغارهم وشبابهم ، حتى يستقيم عودهم وتتشبع نفوسهم بصحيح العقيدة ، وكريم الخصال ، ولعل من أسباب غلبة روح القضاء على روح التربية والتوجيه والعون فى ثقافتهم لأن جُلّ الثقافة الشرعية فى الوقت الحاضر هى ثقافة أحكام بحتة مع غياب التخصصات والممارسات والثقافة الفنية الأوسع على ما كان السّلف » [1] .

٢ - الموقف من مفهوم التعليم والتعلم ، فقد أصبح لدى جمهرة كثيرة من شباب الصحوة اليوم قناعة بأن نهاية الطلب ، وغاية الأرب ، هى اكتساب العلم الشرعى ، وربما ينتهى سلم الأمانى ، ومراتب الواجبات ، باكتساب الفرد لقب « طالب علم » ، لا طالب عمل ، ولتتحول طاقات من الشباب الملتزم إلى بطالة مقنعة ، فى ساحة التغيير ، فضلاً عن عوامل أخرى تتعلق بجدولة موضوعات التعلم وحاجات المتعلمين ، والعائد من هذه الحصيلة على الفرد والمجتمع وحجم الاستفادة الشعبية من هذه الجدولة التعليمية .

إن الخطورة التى ننوه إليها ليست فى مدى أهمية التعلم من حيث المبدأ - معاذ الله - ولكن فى تحول فضيلة التعلم من وسيلة إلى غاية ، فضلاً عن أن يتلقص الدور الاجتماعى لأهل العلم والعلماء ، وتتحول مجالس العلم - فى هذا الوقت الحرج فى تاريخ أمتنا - إلى شئ من الإمتاع والمؤآنسه والاستغراق والغيبة .

---

(١) تجديد الدعوة : د . عبد الحميد سليمان ، ضمن أبحاث مؤتمر الندوة العلمية للشباب ، رجب ١٤٠٢ هـ .

أمر آخر فى غاية الأهمية ، هو مدى شيوع وتشبيع هذا المفهوم المشوّه لفضيلة العلم والتعلم ، على حساب حاجية الدعوة والدعاة فى عصرنا ، إلى درجة قد تؤدى إلى اتساع تلك الفجوة بين المجتمع اللاهى والحق . لانعدام ذلك البُعد العاطفى بين أهل الحق والمجتمع والتى تتأسس عليه المهمة الدعوية ، إن ممارسة التعلم بعيداً عن ميدان الدعوة والاهتمام بهمها تحرم رقة العاطفة وممارسة الشفقة على المجتمع وعلى المنحرفين منه ، فضلاً عن الحرمان من اكتساب آليات ومهارات الروح الدعوية ، وأولها الحكمة فى التعامل مع العباد فى أثناء تبليغهم ، وفى تلقى ونشر العلم ، فضلاً عن التعمق إلى أغوار النفس البشرية والوقوف على عوامل وأسباب ميلها إلى الباطل ، وصدودها عن قبول الحق .

وإذا كنا قد وصلنا إلى قناعة سابقة بأن المسلمين أكثر حاجة اليوم إلى مَن يأخذ بأيديهم ، ويعبر بهم ، دالاً إياهم على كيفية العبور إلى اكتساب الصواب ، وإلى أدب النقلة من العناصر الباطلة فى واقع حياتهم إلى الحقيقة الإسلامية الكاملة ، أكثر من مجرد تعريفهم بدلالات الحق واستحقاقه بالاتباع ، فقد تأكد ضرورة إحداث نقلة نوعية فى الخطاب السَلَفى المعاصر ، من حيث انتقاله من موقف الفكر المجرد إلى موقف المواجهة ، ومن موقف القاضى إلى موقف الداعية المنقذ ، ومن موقف الناقد السلبى إلى موقف المنتشل والموجه والمسدد ، ثم إلى المربى المخطط تسديداً ومقاربة .

إن الدور الحقيقى ، والمنوط بالحركات الإسلامية اليوم ، ومع أحقيتها فى الانطلاق والتوجه السَلَفى ، وبعد أن وضعت يدها على معالم هذا المنهج ، مكتسبة به روح التأصيل ومعالم الاتباع ، هو أن تكمل ما بدأت به من فعل إيجابى نحو حاضر أمتها ومستقبلها ، وذلك ببرمجة الكيف التى تعبر به الأمة ، وإلى سيادة الحق ، بواقعية واقتدار .

وعندما نعنى الواقعية ، فليس المقصود بذلك إقرار الواقع والخضوع له ، ولكن من خلال استيعابه ، ظروفاً وملابسات ، وعللاً وأمراضاً ، ودوافع ، ثم استنباط عوامل وطرق تغييره وإصلاحه .

* * *

الفصل الثانى

العمل الجَماعى

بين التمكين للقدوة والاعتماد على الأتباع

هناك خطاب « حث » عام للمسلمين بالتحرك حركة جَماعية واحدة ، لا حركات فردية متناثرة ومتنافرة بل متضاربة أحياناً ، هكذا استدعت طبيعة الرسالة المنوطة بها الأمة ، أمة الإسلام .

ويأخذ هذا الخطاب درجات من الأهمية والفرضية ومن الاستحباب إلى الإلزام ، ومن الإلزام الكفائى إلى الإلزام العينى ، وذلك تبعاً لاحتياجات الاستنفار الجَماعى لكل مهمة من مهام الأمة ، ومراعاة رفع الحَرَج ورحمة التكاليف ، وعلى أن يلزم ذلك جميعاً أسس قوية لا يعفى منها تضمن سلامة الأداء وقوة البنيان الإسلامى :

* فالأخوة والتآخى فى الدين داعى من دواع العبودية : « .. وكونوا عباد الله إخوانا » ... الحديث .

* والتحاب فى الله شرط من شروط الإيمان ، ومن ثَمَّ شرط من شروط دخول الجنة : و « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » ... الحديث .

« من أحبَ فى الله وأبغض فى الله وأعطى فى الله ومنع فى الله فقد استكمل عرى الإيمان » ... الحديث .

* والموالاة والمناصرة من دون المتربصين لهم من أهل الكفر والنفاق من لوازم الإيمان أيضاً : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .... ﴾ الآية [1] .

---

(١) التوبة : ٧١

كما يجمعهم ويؤسس حركتهم سلامة الغاية والمبدأ وانطلاقة الأهداف :
﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ، وَلا تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .... ﴾ الآية (١) .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... ﴾ الآية (٢) .

ويضاف لتلك الأسس ، تلك الإشارة التحذيرية ، لتحول دون الوقوع فى فتنة التفرق والاختلاف ، حتى لا تتعدد الرايات وتتفرق السبل : ﴿ وَلا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

وتمام ذلك الأمر لا يأتى إلا من خلال الالتزام بضوابط السير العامة التى ألزمنا بها الدين ، ومن وصية المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسُنَّتى » .

وقوله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٤) .

* *

وهكذا نجد الدعوة صريحة بيِّنة تعمل على استجاشة الحس الجَماعى واستصدار الرغبة الجَماعية فى بذل الخير ، ثم الاعتصام بحبل الله والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وفى سبيل بعث هذه الروح فى الأمة اشترط عليها المشرِّع بعض العبادات

(١) المائدة : ٢
(٢) آل عمران : ١٠٤
(٣) آل عمران : ١٠٥
(٤) النساء : ٦٥

الأساسية والفرائض وألزمها أداءً جَماعياً ورصّ الصفوف وضبطها أحياناً ، وبدون خيار لهم فى ذلك .

وهكذا تأسس كيان الأمة واستمر تعاهدها على ذلك ، وإلى أن أهلّ علينا هذا الزمان الذى نعيشه ، والقرن الميلادى الذى نحن بصدد توديعه ، حيث كان من الغبار الذى حملته رياح التغريب إلينا فى مطلعه ، تغريب ذلك الشعور وهذه العاطفة الدينية ، ومن خلال بث خبيث ينشر سمومه ، حتى ألقى فى روع العامة والخاصة ، بأن هذا التدين شأن شخصى ، وعاطفة فردية مقرها القلب ، وليس على كل منا إلا خاصة نفسه . ثم بشئ من التفكهة والتندر على أهل الوعظ والدعاة ، بدأ هذا السم يأخذ طريقه إلى القلوب ، ولتنكمش بذلك الروح الجَماعية وتأخذ فى الضمور .

هذا مع أنه كان يجرى فى نفس الوقت وعلى قدم وساق ، تحركات جَماعية ، دؤوبة ، لكن فى الحرص على تغريب هَوية الأمة ، وإن عملت تحت شعارات التنوير ساعية بكل طريق إن سراً وإن جهراً ، حتى أفسح المجال لها ، إلى أن أصبحت من القوة التى تمكنت بها فى الجهر بأفكارها التخريبية ، ومن أن تستوطن فى قلوب الأمة الضعيفة الخاوية .

وأمام هذه الجبهة المتنامية ، كان من الطبيعى أن تضيع أصوات علماء الأمة ودعاتها - المتناثرة - سدى ، فلا رابطة تجمعهم ، ولا سلطان بأيديهم ، ولا الكلام أو الوعظ أصبح كافياً أمام ذلك التيار الجارف والمتحرك بثقة وتناسق ، فى ظل المستعمر وأعوانه .

وزاد الأمر سوءاً إعلان سقوط الخلافة ، وانفراط عقد الأمة بسقوط آخر العلائق التى تجمع المؤمنين فى أنحاء الأرض .

وكان من الطبيعى أن تشكل هذه الظروف ، وذلك الواقع ضاغطاً آخر على كل مَن فكر بإخلاص فى واقع الأمة وشغل بهمها .

وكان من ضرورة إحداث نقلة فى الخطاب الإصلاحى ، إلى حيث أهمية

التربية ، ومن أهمية اجتماع الأيدى المؤمنة ، وبإعداد صف واحد يستعصى على الذوبان ، وبإعداد ذلك التيار المتلاحم القادر - بتوفيق الله - على مدافعة التيّارات الوافدة بما فيها تيار الفساد والإباحية .

وجاء مشروع التكوين والتربية ، وبما أملت بمجيئه ضرورة أخرى ، فارضة نمطاً من البناء المنضبط ، ولأولوية أخرى ، هى جهاد المحتلين ، وبكل ما يستدعى طبيعة البناء فى هذه المرحلة من التجهز بعدة المؤمن المجاهد .

ومن يومها فُرِضت نظرية العمل الجَماعى ، وأخذت تتخذ صوراً شتّى وفى محاولة لسد الثغرات جميعاً ، وكضرورة مؤقتة ونظراً لانفراط عقد الدولة الإسلامية أو دولة الخلافة .

*　　*

● من ثمار العمل الجَماعى المعاصر :

لا يخفى على كل مهتم بالشئون الإسلامية ، كيف كان للعمل الجَماعى فى هذا القرن من إيجابيات على مسيرة الدعوة الإسلامية وعلى سبيل المثال :

* فلقد ظهرت الجماعات الإسلامية كبديل عملى تربوى لتوقف مشروع الدولة الإسلامية التى ترعى الدعوة الإسلامية ، وكبديل مهم لعجز المؤسسات الدينية، كالأزهر عن القيام بالدور المنوط بها فى مثل تلك الحقبة التاريخية من تاريخ الأمة .

* ولقدكان من أبرز إنجازات مشروع العمل الجَماعى أو التكوينى ، أن استطاع التمكين للقدوة الإسلامية الكاملة ، أو القريبة للتصور الإسلامى للشخصية الإسلامية ، وبعد أن عملت عوامل الذوبان والتحلل على طمس تلك المعالم وخلق الانفصام فى تكوين الشخصية المسلمة المعاصرة .

ففى سنوات قليلة من العمل التكوينى المنظم ، ابتدر إلى أرض الواقع المنتكس نموذج الرجل القدوة المعاصر ، الذى يحمل بين جنبيه تصوراً إسلامياً

صحيحاً ، قد ران عليه الدهر ، فضلاً عن ظهور نموذج رجل التحدى لمعطيات الحضارة ، وبعد أن اكتسحت الدعوة الجَماعية معاقل العلوم المدنية ، وقدَّمت للمنهزمين نفسياً ، الطبيب المسلم ، والمهندس المسلم ، والاقتصادى ، والأديب ، والعالِم الباحث .... إلخ (أقصد الملتزم) .

ومن هنا فقد كان العمل الجَماعى المتواصى الدؤوب ومن خلال التربية ، بمثابة مصنع للرجال ، نموذج القدوة ، الحُجَّة الحية والشاهدة على العصر .

* ومن خلال دوامية العمل الجَماعى واستمراريته ، ومن مجموع نماذج القدوة المتعانقة المتآخية ، تأمنت لهذه القدوة القدوة السائرة - فى أغلب الأحيان - ضد التيار ، ذلك المجتمع الممتثل والبيئة الصالحة التى يراها امتداداً له ، ومعضدة لتوجهاته ، ومذهبة للوحشة والاغتراب . ثم تأمنت لهذه القدوة مع الزمن والانتشار فى بقاع الأرض ، ذلك المجتمع الذى امتزجت فيه ظاهرة الأنصار والمهاجرة ، فضلاً عن تأمين ذلك الاحتياطى من العمق والإبداع والتطوير لحركة الدعوة الإسلامية ، إثر تفجر تلك الطاقات التى وجدت فى هذا المحيط الآمن النسبى بين مجتمع الاغتراب .

* وأخيراً .. يؤتى العمل الجَماعى أهم ثماره ، من خلال تأمين هذا التيار القوى ، الذى يعطى الدفع المتنامى لحركة التغيير والإصلاح ، ويشكل تحدياً عملياً لتيارات الإفساد والعلمنة ، وضاغطاً على قوى المجتمع ، من أجل اتخاذ مواقف أكثر تقرباً ومودَة ، وعودة لتطبيق ما يتطلبه منا الانتماء الإسلامى .

** وهكذا تكوَّن ذلك الجيل الذى كان عماد الدعوة الإسلامية فى هذا القرن ، ذلك الجيل الذى استمسك بدعوته وبروح الجماعة والصف الواحد فاستعصى على الذوبان رغم بشاعة ما لاقى من صنوف الإبادة والعسف .

* *

ومع هذا الإنجاز الكبير ، للمسيرة التطبيقية للعمل الجَماعى ، فقد يحتاج الأمر التوقف عند بعض المتعلقات التى ربما أفرزت ومن خلال الممارسة بعض

السلبيات ، والتى قد تضر بالمسيرة على المدى البعيد إن لم تكن أعملت بضررها فعلياً بحاضر المسيرة ، وتعرضنا لها فى هذا المقام ليس أكثر من مجرد لفت نظر العاملين لهذه الأبعاد ، وحتى يعملوا جهدهم فى سبيل استكمال الصورة الصحيحة للعمل الجَماعى ، وفى هذا الإطار نتعرض لقضيتين :

القضية الأولى : أحادية التصور الجَماعى

فمع أن السلف فهموا أن المقصود بالأمة أو الجماعة مدلولين [1] لا واحد ، أولهما المدلول المنهجى ، والآخر المدلول التكوينى ، إلا أن التجربة الإسلامية المعاصرة لم تقر - تقريباً - إلا تصوراً أحادياً لها وفى تجارب متضادة ومسفهة للبديل المعروض .

وقد استدل على المراد الأول - الارتباط المنهجى - من قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾ الآية [2] ، حيث قال الطبرى : أى كنتم خير أهل طريقة ، ومما جاء فى حديث : « ستفترق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » ، ففى رواية : قالوا : يا رسول الله ، مَن الفرقة الناجية ؟ فجاء فى رواية : « مَن كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » . أى التزام طريقهم وسلوك سبيلهم ، وانتهاج نهجهم فى كل ما أتوا .

وفى هذا السياق جاء قول ابن مسعود رضى الله عنه : الجماعة ما وافق الحق وإن كنتَ وحدك ، كما قال قتادة أيضاً عن الجماعة : أهل رحمة الله ، أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم . وكما أضاف الإمام الشافعى : مَن قال

---

(١) مفهوم جماعة المسلمين والفرقة الناجية : عصام البشير ، بتصرف) ،وانظر أيضاً كتاب « الغلو فى الدين فى حياة المسلمين المعاصرة » رسالة ماچستير للشيخ عبد الرحمن اللويحق ، والذى كان من جملة استنتاجاته ، وبعد أن أورد جميع النصوص فى هذا الباب : أن الجماعة تطلق إطلاقين ، الأول : إطلاق الجماعة على البناء والتكوين . والثانى : إطلاق الجماعة على المنهج والطريقة .

(٢) آل عمران : ١١٠ .

بما تقول جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ، ومَن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التى أمر بلزومها .

ويُفهم من ذلك ، أنه قد يكون هناك جمع من الناس أو جماعات من الناس يجمعهم اعتقاد واحد ويعملون وفق رسالة واحدة وعلى فهم واحد وأهداف واحدة ، ولكن لا يلزم أن يكونوا مجتمعين عضوياً أو تنظيمياً .

وهذا الذى يُفهم أيضاً من تعليق النووى على مفهوم الطائفة المنصورة ، فبعد أن أورد أقوال العلماء والأئمة فى تفسيرها قال : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، فمنهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ومنهم محدِّثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونوا متفرقين فى أقطار الأرض .

أما الاختيار الثانى لمفهوم الجماعة ، فهو ما أشار به الإمام الطبرى عند قوله : إن المقصود بالجماعة هى جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير ، فقد أمر رسول الله ﷺ بلزومه .

وقد نقل الحافظ فى الفتح عن الطبرى قوله : اختُلف فى هذا الأمر وفى الجماعة فقال قوم : هو للوجوب ، والجماعة السواد الأعظم ... إلى أن قال : والصواب أن المراد من الخبر بلزوم الجماعة الذين فى طاعة من اجتمعوا على تأميره ، فمَن نكث بيعته خرج عن الجماعة [١] .

إذن فالجماعة هنا هى جماعة المسلمين العامة ، والأمير هنا أو الإمام هو إمام أهل السُنَّة جميعاً ، ولزوم الجماعة هنا هو لزوم عضوى تنظيمى ، ويكون واجباً .

أما فى حالة عدم وجود هذه الإمامة ، فالالتزام تنظيمياً بجماعة معينة تعمل على منهج أهل السُنَّة ، ولأجل استعادة جماعة المسلمين العامة وتنصيب الإمام ، فيُحمل على الندب وعلى حسب المصلحة ، ولا يُعتبر الخروج عنها أو عدم الارتباط بها خروج عن جماعة المسلمين التى ورد فيها النكير .

---

(١) انتهى الاقتباس .

إذن فنحن أمام تصورين اثنين - ومن حيث فهم السَلَف - لا واحد ، فى سبيل صياغة إيجابية جَماعية لتفعيل ساحة الدعوة الإسلامية واستيعاب جدية العمل فى كافة الظروف وتبدل الأحوال .

وإذا حاولنا الاستفادة من التجربة الإنسانية عموماً فى هذا الإطار ، فلنا أن نضيف صورة أخرى للعمل الجَماعى الفاعل وهو العمل المؤسسى ، أى القائم على العمل من خلال المؤسسات ، والتى يتم من خلالها إنشاء الوعى الجَماعى المطلوب فى أى مجتمع وتطوير مراحله .

إذن فنحن أمام عدة صور مختلفة لصياغة عمل إسلامى جَماعى فاعل ، وبإمكان المسلم المعاصر أن يعمل للإسلام ، غير محروم من بركة العمل الجَماعى إما من خلال : منهج واحد وعلى أن يكون موافقاً لمنهج أهل السُنَّة والجماعة . أو من خلال عمل تكوينى منظم واحد ، أو من خلال مؤسسة دعوية واحدة . وفى كل الأحوال عليه أن يجتهد فى اختيار الوسيلة الفاعلة الأنسب لواقعه وموقعه .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النقطة فلنا أن نطرح عدة أسئلة ، بناء على واقع مسيرة العمل الجَماعى للدعوة الإسلامية الآن والعقبات التى تعترض سبيلها :

أولاً : إلى أى مدى يمكن تقدير صوابية الدعوة لحشر الملتزمين جميعاً للعمل من خلال تصور جَماعى واحد ، فى هذا الوقت بالذات ، ومع عدم إمكانية ذلك من الناحية الفعلية ، فضلاً عن الخطورة فى محاصرة هذا العمل وإمكانية تشتيته ، وما الصورة الأنسب لتوحيد الجهود ؟

ثانياً : ما مدى صوابية تسفيه وازدراء الصور المتعددة للعمل الجَماعى أو الإسلامى عموماً ، مهما كانت ضعيفة الشأن أو هامشية الدور ، وأثر ذلك فى بروز النظرة الاستعلائية ، واحتكار الصواب ، ورفض التعدد الجائز والمفيد ، وإنزال الحرج ، ومصادرة الاجتهادات ، وانتشار فكر التكفير ؟

ثالثاً : ما مدى صوابية تنمية الولاء الخاص دون عامة المسلمين أو العاملين للإسلام أو على حسابه ، وما آثاره فى تضخيم دوائر التعصب وإنماء التشرزم ، وما ضوابط هذا العامل وما حدوده ؟

رابعاً : إلى أى مدى يمكن النظر فى مستقبل العمل التكوينى ، لتجاوز إشكالية مشروعية العمل الجهرى العام ، وما مدى الحاجة لتطوير نظريات العمل وتقبل آراء واجتهادات جديدة ؟

* * *

القضية الثانية : هل التنظيم بديل عن الأمة ؟
(الاعتماد على الأتباع)

لقد أعطت تجربة العمل الإسلامى - الجماعى أو التكوينى على وجه الخصوص - انطباعاً يرى اعتبار التنظيم بديلاً عن الأمة فى إجراء التغيير ، وخاصة أن العمل لا يجرى من خلال الأمة ومن خلال السعى لتطوير قناعاتها ووعيها الجمعى مع انتظار عامل الزمن ، بل على حسب القناعة - يأتى من خلال الاعتماد على الأتباع الذين تمكن التنظيم من تجميعهم وتكتيلهم . ومرد ذلك ، ربما وجد واستمر بناء على تقييم ظالم لمجموعة الأمة ، ورؤية عدم الجدوى من إحداث التغيير من خلال الأمة أو عدم جدوى العمل العام ، وربما لأبعاد استراتيجية أخرى .

ومن ثَمَّ فقد وكلت تقديرات إمكانية إحداث التغيير المطلوب على مدى تنامى القدرة الذاتية التربوية والتكوينية للحركة ، وقدرتها على مواجهة التحديات والثبات على أرضية الصراع .

ومن ثَمَّ تبقى الأمة كطرف ثالث - متغير به - تحاول قوى الصراع فقط استقطابه ، وكسب تعاطفه نحوها .

ومن تلك القوى بالطبع أوجدت القوى الإسلامية نفسها .

والمطلوب الآن التحقق من سلامة هذه القناعة وصوابيتها وآثارها المنعكسة على وضعية العمل والدفع الدعوى تجاه الأمة ، وفى هذا الإطار من الضرورى التحقق من هذه الآثار على سبيل المثال :

أولاً : فإلى أى مدى ساهم ذلك فى تعطل الوظيفة الأساسية لأى حركة دعوية بالنسبة لمجموع الأمة ، ومن كون هذه الوظيفة - بالدرجة الأولى - دعوية للمجتمع ؟ وخاصة مع تدفق كل برامج التربية فى إتجاه التنظيم لرفع كفاءة أفراده ، ومدى اتضاح ذلك - على وجه الخصوص - بعد مصادرة النشاط العام، مثل إغلاق الشُعَب والصحف ومنع الاحتفالات العامة .

ثانياً : ومدى أثر ذلك على تبدل العلاقة مع المجتمع تدريجياً ، وإلى مجرد كونها علاقة اصطفائية ، لانتخاب الأفراد الذين تنطبق عليهم مؤهلات التجميع والتكوين ، وما علاقة ذلك بتجسيد عامل الخوف والتوجس لدى أفراد المجتمع ؟

ثالثاً : إلى أى مدى تقلص العمل الدعوى العام ، إلى مجرد كونه نشاطاً دعائياً لأنشطة الحركة والتعريف بها ، أو المنافسة فى مجال الخدمات الإنسانية ، لكسب عواطف الجماهير من منطق الإحسان ، وبالتالى ضمور وظيفة الداعية الذى همه « إخراج الناس من الظلمات إلى النور » .

رابعاً : كيف عملت هذه القناعة على تنمية الولاء الخاص دون عامة المسلمين ، وليأتى عامل المحن ليزيده تعمقاً ، وخاصة وبعد الإحساس بمدى سلبية الجماهير إزاء ما تعرَّضت الحركة الإسلامية له من ضربات ورؤية نفسها وحيدة فى الميدان؟ كذلك ، ما مدى تأثير ذلك الولاء الخاص على عاملين آخرين :

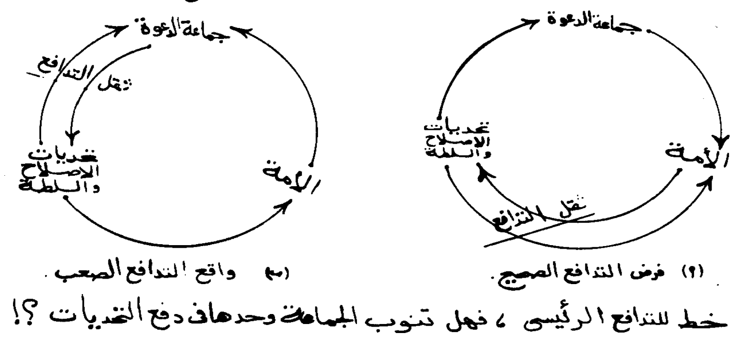
(أ) من حيث المساعدة على إيجاد تلك الفجوة - المبدئية - بين الحركة والجماهير ، ومما مهد لحرب الإعلام الرسمى من أن تؤتى ثمارها ، فضلاً عن شيوع المواقف القضائية الفكرية من المجتمع والتى مارستها بعض رموز الحركة الإسلامية .

(ب) من حيث المساعدة على إثارة عامل التنازع والتعصب الحزبى بين

فصائل العمل الإسلامى نفسه ، وبعد نمو ظاهرة الجماعات وتعدد طرائقها ، ومن حيث رغبة الكل فى اكتساب أكبر قاعدة من الأتباع ، مع ادعاء احتكار الصواب والقدرة على التغيير . وهل كان بالإمكان تجاوز ذلك التناحر ، أو تخفيفه ، لو أنصب عمل الجميع فى اتجاه تغيير الأمة ، ومن ثَمَّ فالأمة بعد ذلك هى الأقدر على إقرار التغيير وبعد تصفية الأفكار والوسائل والشعارات .

خامساً : كيف عملت هذه القناعة بأن التنظيم بديل عن الأمة ، ومن ثَمَّ الاعتماد على الأتباع على احتكار الثقافة التنظيمية الخاصة [١] وغلبة اللغة الدعوية الحركية على اللغة الدعوية العامة ؟

سادساً : وإلى أى مدى ساعد ذلك - على الإطار العام - على ضمور رسالة الدعوة أو رسالة الحركة ، وانتقالها من طور الدعوة والإصلاح للأمة إلى الدعوة للانتماء للحركة ؟ ولتتحول حركة التعبئة الدعوية من الأخذ من الأمة ، لا لتعطيها ، أما حاصل ذلك فيتجه ليصب فى اتجاه السلطة على أمل أن يصب فى النهاية بالإثمار إلى الأمة وكما يظهر من خلال الشكل التالى الذى يبين من أين تبدأ مسيرة التغيير ، وهل تنوب الجماعة وحدها فى دفع التحديات ؟



(أ) فرض التدافع الصحيح. (ب) واقع التدافع الصعب.

خط للتدافع الرئيسى ، فهل تنوب الجماعة وحدها فى دفع التحديات ؟!

---

(١) ستظل « رسالة الأصول العشرين » للإمام البنا ، نموذجاً لهذا الاحتكام للخير ، فلم نجد من أبناء الحركة من يشرحها ويعلمها للأمة ، ولو فعلوا لكفاهم ذلك فى الإسهام فى رفع مستوى الوعى النوعى الضرورى لجماهير الأمة ، وكما قال الشافعى فى سورة العصر .

ويتبقى سؤال أخير :

هل بإمكان أى من الحركات الإسلامية المعاصرة - وبناء على التحديات التى تواجه العمل الإسلامى الآن - أن تكون بديلاً حقيقياً عن الأمة فى إحداث التغيير الذى تتبناه وبدون مشاركة من الأمة ؟

والحقيقة أن هناك تحديين يواجهان العمل الإسلامى ، تحد من داخل الصف الإسلامى نفسه ، حين يعجز عن الوصول إلى صيغة وتصور موحد لآفاق العمل والمستقبل ، وإن تعددت الجماعات ، واتفقت على التكامل لا التدابر .

والتحدى الآخر الذى يستهدف عرقلة المشروع الإسلامى ككل ، وهو المعادى أساساً لمنطلقات الدعوة الإسلامية المناقضة للمشروع الغربى العلمانى .

وهذه التحديات جميعاً تنوء بها وبمواجهتها حركة إسلامية معيَّنة سواء قبل التمكين أو بعده ؛ فقبل التمكين : تأتى التحديات التى تحول دون حرية العمل والنشاط ومصادرة كل صور الاتصال الجماهيرى ، فضلاً عن الحيلولة دون الوصول للحكم ديمقراطياً كان أو بالقوة .

أما فى حالة التمكين : فلو فرض وهيأ الله التمكين لتنظيم ما أو جماعة من الجماعات ، فالكيد لهذه الدولة الإسلامية الناشئة ، ومن ثَمَّ تأليب التآمر الدولى والعزل ، حتى يموت الشعب أو يسقط النظام ، وإشعال الفتن من الدول المجاورة ، وتأليب الطوائف الداخلية ، وإشاعة طائفية الحكم ، وعدم تمثيله لكل الشعب .... إلخ .

ويصبح المشروع الطموح فى الإصلاح والنموذج الناشئ مهدداً بالتصفية ، ما لم يتخل القائمون على الحكم عن الرداء الحزبى واعتماد صور أكثر مشاركة شعبية .

* *

والحقيقة ، أننا نعيش تجربة معاصرة فى السودان تقول ذلك وبكل قوة ، وتصرح بلسان الحال : بأنه ما لم تعمل الحركات من خلال جبهة عريضة ، أكثر تمثيلاً للأمة ، بجميع طوائفها ، ومن ثمَّ تتجاوز بالدعوة نقاط تماس كثيرة لكى تنشر الفكرة الإسلامية وتعمل على تشبيعها مع مقومات التغيير ، وبدرجة يستطيع معها الشعب بعد ذلك أن يتبنى الفكرة الإصلاحية ويحافظ عليها ويحمى مؤسساتها حين تقوم .

تقول التجربة : إنه ما لم يحدث ذلك ، فما زال الطريق طويلاً ، والبون شاسعاً إلى أن تتهيأ الأسباب ، ويكون الأمر أكثر توافقاً مع السنن .

ومن هنا يمكن القول : ما زالت إمكانية إحداث تغيير حقيقى فى المجتمعات الإسلامية وفى اتجاه إقامة مشروع الدولة الإسلامية مع الحفاظ عليها ، أكبر من إمكانيات أى تنظيم أو جماعة ، ومن ثمَّ فقد أصبح الجهد المطلوب الآن ومن قبيل إكمال الرسالة التى قطع فى سبيلها أشواط كثيرة هو : القدرة على تشبيع الفكرة الإسلامية تربوياً ، وعدم الحرص على احتكار إحداث فعل التغيير ، ومن ثمَّ محاولة تسديد الوعى من خلال الأمة ، بالتحايل على نشر الفكرة ورعايتها على مستوى التطبيق ، وحتى يصل الوعى المرشد إلى أغلب المستوى الأفقى .

ومن ناحية أخرى .. فبقدر النجاح فى إزالة الفوارق الحزبية والطائفية بين فئات العمل الإسلامى من ناحية ، وبينهم جميعاً وبين جميع المسلمين من ناحية أخرى ، بقدر الدلالة على دنو الأمل ، وليس بالعمل على احتكار التغيير ، أو إسرار الخطط أو الانكباب على الذات ، مع الاغترار بها ، والاعتماد فقط على الأتباع .

* * *



الباب الثالث

فى المعوقات

- العلاقة مع الحاكم .. بين المناصحة والمنازعة .
- الوعى بالآخر .. بين استحداث الوعى واستدعاء العداء .
- تعدد الجماعات .. بين التسديد والتبديد .
- الخطاب الدعوى .. بين التهييج والتنهيج .

* * *

الفصل الأول

العلاقة مع الحاكم ..

بين المناصحة والمنازعة

عندما حاولت رموز للمشروع الإسلامى أن تؤسس لمشروعها فى حقبته الثانية ، كان من سوء الظروف أن جاءت هذه الرموز حاملة معها عقدة الماضى القريب ، وترسبات مرحلة سوداء لم تهدأ جراحها بعد ، ومما نالها من التعامل القمعى للنظم الاستبدادية مع الإسلاميين .

فلم تكن هذه الرموز - القيادية - نفسها خالية من هذا الأثر ، كما لم تفرز بداية المشروع فى هذه الحقبة قيادات جديدة ولا أفكاراً جديدة ، مستلهمة بتجرد دروس الماضى البعيد والقريب ، كما لم يكن بالإمكان أن تتبنى هذه الرموز مشروعها فى الظروف الجديدة ، طارحة معه جراح الأمس ، وكما لم يكن بالتالى لتحمل معها من دروس وعبر التجربة إلا الذى أفرزته وما تفرزه فعاليات علاقة بين ظالم ومظلوم ، لاقى الأخير فيها أشد صنوف العذاب ، وهو يحسب أنه لم يلق هذا إلا لكونه يقول : ربى الله . فكان من الأثر البالغ أن يسيطر درس واحد لا غير على فلسفة التغيير ، والتى استقاها مبشرو المشروع الإسلامى فى هذه الحقبة والتى جاءت مع مطلع السبعينيات من هذا القرن الميلادى ، وكانت خلاصة هذا الدرس : أن التغيير سيبدأ وسينتهى عند إزالة الطواغيت .

وطبيعى أن تتولد نظرة مرادفة لذلك تحمل الريبة والتشكك فى كل مَن يتعامل من قريب أو بعيد مع مؤسسات هذه الطواغيت سواء أكان فرداً عادياً أو مفكراً ، أو ممن يمارس التدين والإرشاد .

ومع أن هذه البدايات يكتب لها فضل تدشين الصحوة الشبابية فى مصر

مثلاً فى حقبتها الثانية ، فإنها رهنت منطلقات العمل الإسلامى ، وأسرت تفكير وتوجهات هذه الطاقات – لدرس الماضى الأحادى – لسنين عديدة تالية .
فكان على أى شاب عاصر هذه البدايات وتأثر بها ، وأثناء ممارسة عملية الالتزام بالدين ، كان عليه أن يقع تحت تأثير هزة عنيفة تجعله ينقلب بحدة وبزاوية ١٨٠ درجة . ومن التصالح مع المجتمع والنظام إلى الانقلاب عليهما معاً وفى وقت قصير للغاية . مما يجعل هذا الالتزام عنيفاً وعاطفياً ولا يتناسب مع منحنى التغيير الداخلى النفسى .

ويظل هذا الالتزام تحت شبهة الاتهام بالرفض الاجتماعى ، ذلك التيار المتنامى حينئذ تحت ضغط عوامل كثيرة ، وكان نصيبالتدين المضطهَد قدر كبير من المتأثرين به ، لصدق النبرة فى التحدى ، وقوة الاصطدام والإنكار ، ومجيئه فى مرحلة إفلاس وسقوط شعارات وأفكار كثيرة .

ولا حاجة للتدليل كثيراً على هيمنة هذا الاستنتاج على ممارسات ومنطلقات العمل الإسلامى فى هذه الفترة . ومع العودة قليلاً إلى الوراء ، يستطيع كل معاصر أن يسجل لتيارات الصحوة وكيف طرقت آذان المجتمع ومن أى باب .. فمن حادث المحاولة الانقلابية لتنظيم الفنية العسكرية ، ومروراً بحادث اغتيال الشيخ الذهبى ، وانطلاق مقولات التكفير والتى ربما ما زالت تشغل العقل الإسلامى ، وحسبك من ذلك بداية ليكون لها أثر لا يستهان به فى رسم خطوط ومنهجيات تنظيمات إسلامية ناشئة .

ومع تبلور خط منهج التغيير بالقوة وتأصل هذا التوجه الاصطدامى فراجت بضاعته فى أجواء هذا المشروع الوليد ، ذلك الذى حمل معه قناعات مبدئية برفض الحوار مع النظام ومؤسساته الاجتماعية .

وبالنظر إلى الأدبيات السائدة المتداولة بين الشباب فى تلك الفترة ، تجد كيف سادت وملكت الألباب تلك الكتب التى تتكلم عن الردّة التى سادت العالَم الإسلامى ، ومقولات الحاكمية والتعامل مع النظم الطاغوتية ، وعن أفضل

الطرق لتغيير السلطة ، وعن الدور التآمرى الذى يقوم به الحكام لضرب الإسلام وتيّاراته .

ولكم لعبت تلك الأدبيات دوراً كبيراً فى تهيئة العقل الإسلامى الصاعد وفى اتخاذ موقف مبدئى من النظام ومؤسساته ، ولكم هيمنت هذه الفكرة على المنطلق التغييرى إلى درجة تفرض عليه اختزال المراحل واقتصار الطريق .

* *

ثم نجد أثر ذلك واضحاً أيضاً على نمو عامل التناقض والانشقاق بين التيار الإسلامى نفسه ، وبدلاً من أن تتجه صحوته إلى التوحد . وكنتيجة لمركزية هذا الهدف الدعوى نمى التناقض وتضخم إلى ما بين مؤمن بضرورة التغيير بالقوة ، وآخر يرى التغيير التربوى السلمى ، وثالثهم الذى يرفض بداية تعاطى السياسة ومشتقاتها . ومع بروز خط واضح يدعو إلى الاعتدال فى التعامل مع السلطة ، والدعوة لضبط النفس ، ومن ثمّ محاولة كسب الوقت ، فإنه لوجود على رأس أولياته فى العمل الإسلامى ، أهمية التغيير السياسى وإقامة الدولة الإسلامية ، ثم مدى تأثير ذلك علي الجانب الدعوى التبشيرى ، ولوجود هذه القناعة بأولوية التغيير وعدم جدوى الإصلاح قبل تغيير الحكم ، جعل مجمل المسيرة تتجه نحو التصعيد ، كما كان من أثر تأخر سيطرة هذا الجناح المعتدل على الشارع الإسلامى لاحتواء حماس الرغبة فى التغيير تربوياً ، جعل محاولات قيادته -لضبط الشارع الهائج - تبوء بالفشل .

وبات ذلك التيار - المعتدل - بين نارين ، نار اتهام بعض الفصائل بالميوعة والمهادنة ، ومما يضطره لاتخاذ مواقف أكثر صرامة مع السلطة ، ثم نار التصعيد نفسها التى ليست فى صالح المشروع على المدى البعيد .

وهكذا تستمر قصة التصعيد ، والهروب إلى الأمام ، ففى ظل عوامل خارجية وأخرى داخلية ، من الطبيعى أن يشتعل فتيل الاصطدام ، ثم يكون

الأمر مسألة وقت ، حتى يأتى الموعد مع القدر ، ومحنة جديدة للمشروع الوليد، وكما حدث فى سبتمبر ١٩٨١

ثم ماذا بعد ؟؟

تتبلور انتهاجات جديدة وربما نظام جديد ، ومعه تأتى تحالفات جديدة ، وخطط أمنية جديدة ، مؤطرة سياسة القمع واليد الحديدية ، ومع صياغات جديدة للسياسة التعليمية ، فالثقافية فالإعلامية ، وفى محاولة شيطانية لاستئصال بل تجفيف منابع الصحوة ، وإن شئت قل : منابع الدعوة الإسلامية .

وهكذا يستمر المسلسل ، وليتكرر المرة تلو الأخرى .

والسؤال الآن : ماذا أثمرت تلك الرؤية الأحادية ، ثم مَن الخاسر فى النهاية ؟؟ وأليس الأمر يحتاج إلى التقويم ؟؟

وبداية يمكن القول إنه مع اتباع أسلوب منازعة السلطات منذ البداية ، ربما قد فات على الحركة الإسلامية فرصة المحافظة على مكتسبات نالتها وحققتها فى فترة السبعينيات ، مما اضطر السلطة لتغيير القوانين واللوائح فى وجه تمرير المشروع الإسلامى إلى الأمة والتضييق على منافذه .، وأثر غرورها بالسيطرة على بعض مواقع المجتمع مثل اتحادات الجامعات ، وربما قد تصورت الكثرة من الشباب حينذاك بأنهم أصبحوا قاب قوسين من امتلاك السلطة .

كما يمكن القول أيضاً : إن الحركات الإسلامية أخفقت بدرجة ما فى وضع الأنظمة الحاكمة فى محك حقيقى واختبار ، أمام مصداقيتها فى تعاملها مع الإسلام ، فقد جاءت ممارسات بعض الإسلاميين فى كثير من الأحيان ملجئة ومخرجة عن الطور لطبيعة أى حاكم وسلطان ، وقد تضيع الحقيقة طويلاً فى غمرة هذا الصراع .

وربما تكون تلك أبرز النتائج والانعكاسات الآن وبصورة مباشرة من واقع الحركات الإسلامية ، وقد يستمر هذا الحال المتجمد إلى مدى اللّه أعلم به ، ما لم تدخل عوامل جديدة فى الصراع .

ولكن عند النظر على مدي بعيد ، وكيف يمكن أن تؤثر نظرة المنازعة على الصورة ككل ، وكيف تنسحب هذه العلاقة المتوترة بين الحكام والدعاة على مستقبل الدعوة الإسلامية عموماً ، فقد تبدو الصورة أسوأ مما هي عليه الآن .

فمع استمرار استعداء الحكام على الإسلام ، ثم استثمار الغرب هذه العلاقة بمزيد من دفع الحكام لإحكام الطوق وضرب الصحوة الإسلامية ، فقد يزيد ذلك من تقوقع العمل الإسلامي ، ومن ثمَّ انحصار آفاق التغيير على مساحة المنافسة غير المتكافئة مع السلطة ، ومع حساسية الجماهير في التفاعل والتواصل مع المشروع الإسلامي ، وبروز الفكر الشاذ تحت وطأة الاضطهاد . عندئذ نكون قد تحصلنا على أخطر نتيجة ، ألا وهي تقوقع وانحصار وتشوه الفكرة الإسلامية مع الزمن ، وأثر المحاصرة التصاعدية لمرافق الدعوة ، من مصادرة المساجد وإغلاق الصحف وتأميم الدعاة ، فضلاً عما يتم الآن على المستوى التربوي من مسخ وتغيير للمناهج ولما يؤدي إلى تجفيف منابع التنشئة السليمة - الدينية - أمام الأجيال الصاعدة .

ثم ينبغي استحضارنا لعامل مهم وخطير أيضاً ، ألا وهو أن ظاهرة أمراء الأندلس - مرحلة السقوط - وأمراء الشام في مرحلة الحروب الصليبية ، والاستعانة بالصليبيين ليتخلص بعضهم من بعض ، هذه الظاهرة تتكرر الآن ، وتحت الضغط المتصاعد للمعارضة الإسلامية ، ومن خلال التجاء بعض الحكام إلى أحضان الغرب طلباً للحماية والتدخل ، ومن أجل تفادي وصول الإسلاميين إلى السُلطة ، مع نمو هذا الآن بشكل سافر وعلني ، وتحت ستار التحالف ضد الإرهاب والتطرف في النظام العالمي الجديد .

ومطلوب الآن التعامل مع هذه الظاهرة بعمق وهدوء ، وما يستدعي تغيير طبيعة الخطاب الدعوي ، وبصورة تستحضر الأخطار جميعاً ، والمصلحة في جميع الأحوال ، ووجه الضرورة في التعسف في المطالبة بالحق .

*   *

● بين المشروعية .. والممارسة :

اعتمدت الحركة الإسلامية عند صياغة نظريات التعامل مع السلطة والأنظمة على منطلقين مشروعين أساسيين :

أولاً : أن الإسلام دين ودولة وسياسة وقانون ، وأن الاشتغال بالسياسة من الشأن الإسلامى ، والمشاركة بالحكم مطلب طبيعى مشروع .

ثانياً : الحاكمية ، ومشروعية الحكم بما أنزل الله ، وضرورة انتزاع الحاكمية ، وردها إلى الله سبحانه وتعالى . وقد يكون من الضرورة أن نسجل هنا ملاحظتين أيضاً :

الأولى : أن الحركة الإسلامية حين مارست الاشتغال بالسياسة ، وهذا فى حد ذاته كان تجديداً فى الفكر الدعوى ومن الإيجابية الدعوية ، سيطرت المشروعية على أدائها السياسى ، وبالتوظيف والتركيز فى آن واحد على مسألة السلطة وشئون الحكم ، وأعتقد أن هناك فرقاً بين امتلاك الحس السياسى ومعالجة شئون الأمة ، وبين توظيف هذا الحس فى معارضة ومنازعة الحكم والسلطة .

الثانية : إلى أى مدى يمكن القول بتميز الممارسة الإسلامية السياسية ، فى الأهداف والمنطلقات ومرحلية إجراء التغيير السياسى ، عن غيرها من صور الممارسات المعارضة المستجيبة إلى مدى بعيد لغوغائية الشارع السياسى والرفض الاجتماعى ؟

فإلى أى مدى أخذ الخطاب السياسى الإسلامى بتغليب فقه المناصحة ، وضروب السياسة الشرعية ؟ [١] .

---

(١) إن محاولة التقدم للمساهمة فى إصلاح المؤسسات النقابية ، والإقدام على دخول المؤسسات التشريعية (كالبرلمان) ، وإظهار كيفية الممارسة الإسلامية للحق السياسى ، خطوة إلى الأمام على هذه الضروب ، وإن ظهر للبعض شئ من السلبيات . وربما الصبر على هذه الضروب جزء من إظهار واقعية الممارسة السياسية الإسلامية وقد يؤتى هذا الطريق ثماره بعد حين .

وإلى أى مدى أثَّر اعتماد الأطر التنظيمية ذات البناء العسكرى سابقاً ، واستمرار أخذ البعض به حالياً ، فضلاً عن ممارسة بعض الرموز للحركة لاستخدام القوة استجابة لمزالق الاستفزاز والاستثارة ، أثَّر على ممارسة الإسلاميين هذا الحق ومصادرته منهم من قِبَل السلطات ؟

إن خطورة العطاء السلبى لممارسة الإسلاميين ، تنطوى على عائد الثقة على المشروع الإسلامى وطارحيه ، وأقل ما يمكن أن يُرمَى به الإسلاميون فى هذا الخصوص ، أن خطابهم الدعوى لم يعتمد أساساً أطراً للتغيير بعيدة عن منصة الحكم ، وخاصة مع وجود ما يشجع من عوامل على هذا الظن مثل :

١ - أن طبيعة العمل الإسلامى ذى الصفة التكوينية والأطر التنظيمية ، قد توحى بالقدرة على المنافسة وبالتالى فالرغبة فى الاستعجال واردة لمفاجآت الطريق ووعورته ، مما يجعل ممارسة الإسلاميين فى اتجاه السلطة إلى التصاعد .

٢ - أن وجود سلاح قوى فى أيدى الإسلاميين ، وهو سلاح المشروعية (مشروعية الحكم والحاكمين) ، قد يلوح ذلك للبعض بكفايته لزلزلة وإسقاط أى نظام ، مع أن التلويح بهذا السلاح ليس كافياً على أى الأحوال ، وقد يُفهم أنه حق يراد به باطل ، فلا بد من ممارسة تكسبه البُعد عن شبهة الانتهازية السياسية [١] ، ومن خلال استيفاء الطرق الأخرى فى الدعوة والتغيير ، مع عدم إغفال قاعدة التغيير الأولى وهى الأمة .

نأتى فى النهاية ، لطرح هذا السؤال :

فأى الوسائل أجدى إذن ؟ المناصحة .... أم المنازعة ؟

---

(١) نرى إلى أى مدى امتدح المحللون السياسيون ، موقف الشيخ عمر التلمسانى ، عند استعراض الموقف مُن تطبيق الشريعة الإسلامية خلال جلسات مجلس الشعب المصرى وقد دعى لحضورها ، حيث كان مع مَن قالوا بضرورة مراعاة التدرج ، وحيث اعتبر الدكتور سعد الدين إبراهيم المحاضر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، هذا الموقف من قائد أكبر حركة إسلامية ، بأنه جاء بعيداً عن هذه الانتهازية السياسية ، وقد نشر هذا التعليق - على ما أذكر - بصحيفة الجمهورية المصرية .

ولكى نجيب على هذا السؤال ، علينا أن نراعى ضوابط ثلاثة ، هى : المشروعية ، والمصلحة ، والاستطاعة .

وحقيقة ، فإن المشروعية غير المتعسفة ، تستوعب الثلاثة .

فما الوسيلة التى توليها الآن الاستطاعة والمصلحة والمشروعية ، لكى يتحقق للمشروع الإسلامى أهدافه مع مراعاة مصلحة الدعوة الإسلامية ، فى حل إشكالية التعامل مع السلطة ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال ، من الضرورى أن نستبعد عامل الزمن ، فمع العمل المنضبط ، يكون الزمن فى صالح الإصلاح لا محالة .

وإذا كانت تجارب الماضى القريب والحاضر الشاهد ، قد أعطتنا زخماً من الدروس فى مرارة المنازعة والمواجهات الطائشة ، وإذا كانت مصلحة التغيير والدعوة تستدعى إعطاء الفرصة لانتشار أسس الإصلاح وتفعيل وسائل الدعوة الإسلامية والتغيير الاجتماعى ، ومع كون ذلك لن يتأتى إلا بإبطال مفعول التوتر مع السلطات ، وتغيير الاستراتيجيات ، ومد جسور الحوار والمناصحة واستفراغ أساليب السياسة الشرعة ، فلماذا إذن نفضل طريق الانتحار ؟

أما من حيث المشروعية ، فمن حكمة التشريع أنه اعتمد دائماً جانب الاستطاعة والمصلحة للمكلّفين ، فلم يكلّف اللّه نفساً إلا وسعها . وقد آن الأوان لاستحضار النصوص التى تتناسب مع حالة الدعاة وإمكانياتهم ، بدلاً من التعسف فى الاستشهاد بنصوص التكليف فى حق دولة الدعوة وأمة التمكين . مما انعكس على إعطاء الحركات الإسلامية حجماً أكبر من حجمها .

يقول الإمام أحمد بن تيمية : « ومَن كان عاجزاً عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد ، ففعل ما يقدر عليه من النصحية بقلبه ، والدعاء للأمة ، وبحبه للخير وفعل ما يقدر عليه من الخير ، لم يُكلّف ما يعجز عنه » [١] .

* *

---

(١) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية : للإمام ابن تيمية .

● درس الحديبية :

إن صلح الحديبية الذى أمضاه الرسول ﷺ - فى العهد المدنى - والذى ضاقت به صدور الصحابة رضوان الله عليهم فى حينه ، اعتبره القرآن فتحاً ، وقد كان . ففى أجواء المعاهدة استطاع المسلمون استئناف الدعوة مما أدى إلى مضاعفة عددهم إلى أربعة أضعاف فى فترة تقل عن سنتين ، مما قلب موازين القوى ، فألقى الرعب فى قلوب زعماء قريش . فدخل المسلمون مكة دون قتال .

ولا أعتقد أن حالة الحركات الإسلامية الآن - فى أى دولة - أقوى من حالة مسلمى الحديبية بمقاييس التمكين والعصر ، فضلاً عن وجود رسول الله ﷺ بينهم ، وبالتالى فهم فى غنى عن الصبر والمناصحة .

إن المشكلة ليست فى إيجاد مسوغ للخروج والمنازعة ، من كفر أو ظلم أو حتى فسق ، حتى نسرف فى ذلك المخرج ، ولكن المشكلة فى إمكانية المنازعة ، وإلا كانت فتنة .

وإذا أصبح هناك شبه قناعة بجدوى طريق المناصحة ، فربما يكون الأهم فى هذا الشأن ، الوصول إلى الشكل الفعَّال لهذه العملية ، ولذلك فقد يكون الأصعب من هذه الناحية ، هو كيفية اكتساب مقومات « المناصحة » الفاعلة . وما السبيل لإعانة المؤسسات الحاكمة فى بلادنا ، للأخذ بنصائح العلماء والدعاة ، فضلاً عن استقصائها لديهم ، واحترامها ؟ إن ذلك ، لربما يكون من أهم الواجبات التى يجب أن تخضع للبحث والدراسة ، قبل أن تأخذ طريقها للممارسة على أرض الواقع ، وربما يكون ذلك من أهم واجبات الوقت والمرحلة التى تمر بها الدعوة الإسلامية .

فمطلوب البحث إذاً عن تلك الآليات التى يجب أن يكتسبها خطاب الدعاة مع حكام المسلمين المعاصرين ، ثم ما هى شرائط هذه العملية ، بدءاً من شروط العالِم والداعية المأخوذ بنصحه ، ثم طريقة النصح المناسب للوقت والزمان ، ثم إذا كانت هناك أزمة ثقة بين الحكام والدعاة ، فكيف السبيل لإعادة هذه الثقة ؟

ثم علينا أن ندرك إذاً المغزى من وصية المولى عَزّ وجَلّ لسيدنا موسى وأخيه هارون عند تكليفهما بأول خطاب دعوى لأطغى نظام سياسى فى التاريخ ، وما هى تلك المعانى التى يجب أن نستحضرها من فقرات تلك الوصية الهامة ، بدءاً ما نقدمه بين يدى العملية الدعوية : ﴿ اذْهَبْ أنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى وَلا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [1] ، ثم الطبيعة التى يجب أن يكتسبها الخطاب : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [2] مع حجم الرجاء فى التوفيق ، ثم التعبئة المعنوية التى لا تؤثر على جملة الخطاب ودرجة أدائه وربانيته : ﴿ قَالَ لا تَخَافَا ، إنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [3] ، فضلاً عن حجم بقية الدروس المستقاة من بقية القصة [4] ، ومن المسيرة التطبيقية لتاريخ هذه العلاقة فى التاريخ الإسلامى .

* * *

(١) طه : ٤٢ (٢) طه : ٤٤ (٣) طه : ٤٦

(٤) أولاً - وقبل كل شئ - مغزى الجدوى من هذا التكليف بهذا الخطاب من قِبَل الله مع علمه سبحانه وتعالى سابقاً بأن فرعون لن يؤمن .

الفصل الثانى

الوعى بالآخر ..
بين استحداث الوعى واستدعاء العداء

« اعرف عدوك » ...

شعار دولى وحق إنسانى ، لا يتنكر له أحد ، بل تحرص عليه الخلائق جميعاً ، الأفراد منهم والجماعات ، وإلا فَمن ينكر على الغير حق استخدام السلاح الأول للمحافظة على الذات ، والدفاع عن النفس ؟

والعداء عاطفة فطرية فى الإنسان - مع تعدد الدوافع - منذ خلق آدم وتصارع الأخوان ، ومنذ أن تحددت وترسمت معالم الخلاف ودوافع الصراع الأبدى بين الحق والباطل بصفة أساسية .

ولقد جاءت مشاركة إبليس وترأسه جيش الباطل إسهاماً أساسياً فى تفعيل المعركة : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فيه ، وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُم فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١) .

ولم يكن مقام الخيرية لأمة النبى الخاتم محمد ﷺ بالشئ الهين حتى تُترك لتهنأ به ، ودون أن تُثار نوازع العداء جميعاً من ورائى ومتواصى الباطل وجنود إبليس ، بل حتى لم تسلم أمة الإسلام من عداوة أتباع شجرة النبوة الواحدة ، اكتفاءً بعداوة أهل الشرك والوثنية ، بل كوّن الجميع حلفاً واحداً ولطالما اجتمعوا فى العداوة والحرب .

* *

---

(١) البقرة : ٣٦

ومن هنا كان الوعى بالآخر - بمن يحملون مشاعر العداء - ضرورة لأمة الإسلام ، فضلاً عن ضرورة استمرار فعاليات استحداث ذلك الوعى على الدوام ، وعلى وجه الخصوص حين تهزل الأمة وتصبح مطمعاً للآخر ، يتداعى الأمم عليها ، ومع إعلان تحول تلك العاطفة السلبية من العداوة والكراهية إلى معركة لاستئصال الوجود .

ومن هنا يجيئ دور روّاد النهضة وقادة الإصلاح .

* *

والحركة الإسلامية المعاصرة ، لم تألُ جهداً فى توعية الأمة ، وتبصيرها بالتيارات والقوى التى تتكالب عليها فى هذا القرن ، والتى جاءت مستغلة حالة الضعف والهوان التى أصابت الأمة ، واستهدفت استئصال ما تبقى من علائق بينها وبين عقيدتها .

ولقد جاء هذا الدور من الحركة الإسلامية كانطلاقة طبيعية ، ودفاعاً عن النفس والعرض والدين . وبدرجة أساسية ، انطلاقاً من الوعى القرآنى ، وتيقناً بآياته ونبوآته ، ثم استبصاراً لهذه النبوآت على أرض الواقع .

ولِمَ لا وقد خط الإنذار القرآنى معالم الوعى والحذر لدواعى العداوة والتربص ، التى تُكن لأمة الإسلام ، ثم ما هى تلك القوى والأمم التى تقف لها بالمرصاد ؟

وما بعد شهادة الخالق جَلَّ وعلا من شهادة ، وهو خير الشاهدين .

فها هو سبحانه قد أخبر بنفسه وأحاط علماً باستكانة هذه العداوة من حيث المبدأ : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً ﴾ (١) .

ثم كان من رعايته سبحانه أن أخبرنا بمعالم تلك العداوة ودوافعها ، وفى

(١) النساء : ٤٥

مواضع مختلفة من كتابه العزيز : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّن خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [1] .

﴿ هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [2] .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [3] .

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾ [4] .

هذا عن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، أما عن المنافقين فقد جاءت شهادة الله فيهم : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [5] .

* *

وهذا هو وجه القضية - الوعى بالآخر - على وجه الإجمال ، كحق وكمبدأ مشروع ، وكانطلاقة واجبة لدعاة الإسلام من حيث ضرورة تنبيه الأمة ، واستيفاء مقوّمات الوعى بمصدر الأخطار التى تتهددها .

وتبقى القضية بعد ذلك بحاجة لشئ من التفصيل ، وإلى استكمال المضامين والضوابط التى تضبط التعامل مع هذه الحقيقة ، وبما لا يجعلها تميل مع الهوى أو تذرها كالمعلقة ، يتعامل معها كل بطريقته .

---

(١) البقرة : ١٠٥ (٢) آل عمران : ١١٩ (٣) البقرة : ١٢٠
(٤) البقرة : ٢١٧ (٥) البقرة : ١٤

ومن خلال الاستدلال بهَدْى القرآن والإسلام عامة ، نجد أن هناك جملة من هذه الضوابط ، نحاول التعرف عليها كالتالى ، ومنها :

أولاً - طريق الاستدلال على عداوة الآخرين :

إنَّ رمى أى فريق أو جماعة أو حتى فرد بأية تهمة لم يجعله الشارع باباً مفتوحاً تُستباح منه الأعراض وتضرب فيه الظنون ، وتنقاد الأنفس وراء الشائعات ، أو تتبعاً لنبإ من فاسق . بل أوجب التحقق والتبين ، والبحث والتحرى وتجميع الشواهد ومقابلة الأدلة وتحليلها ويتجرد من نوازع الهوى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ أَن تُصِيبُواْ قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (١) .

« إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » (٢) .

إنَّ خطورة إعلان عداوة فريق أو ارتداد آخر ، أو عمالة أحد من الناس ، أو محاربة طائفة أو للإسلام ، خطورة أية خطورة ، لما سيترتب عليها من أحكام ومواقف ، وسواء أكانت هذه الآحاد من الناس أو الجماعات من بين المسلمين ، أو من خارجهم ، مع خطورة الوضع أكثر فى حالة الفريق الأول . ولذلك وجب ذلك التحرى فى البحث والشهادة على الآخرين .

إنَّ الخطورة التى تهمنا فى هذا الشأن ، هو مدى ما سترتب على أخذ هذا الموقف غير المحقق من الآخرين ، ومن تحريك العداوة والضغينة ، وتجسد لتهمة لم تكن من قبل ، واستدعاء المنصرف وتحريك الساكن ، وانتصار تدخل الشيطان .

*

---

(١) الحجرات : ٦

(٢) رواه مسلم .

ثانياً – خطورة التعميم :

عندما حدّثنا القرآن محذراً من الأمم والفرَق التى تكن العداوة للإسلام والمسلمين ، ظهرت غاية الدقة فى استخدام الألفاظ ، ومراعاة النسب ، واختلاف درجات العداوة .

فلم تأت الألفاظ مطلقة تفيد مطلق تعميمها ، على الأقوام والجماعات ، أو تفيد تساوى درجات العداوة ومنطلقاتها ، على كل فرقة على حدة .

وهذا يعتبر أعلى درجات الدقة والأمانة ، ومما يعطى ذلك الأثر المنضبط أيضاً على حركة رد الفعل .

فنرى ذلك واضح البيان من أقواله تعالى فى مواضع كثيرة ومتفرقة فى كتابه العزيز :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ﴾ (١) .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (٢) .

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ، مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران : ٧٥ — (٢) البقرة : ١٠٩ — (٣) آل عمران : ٦٩

(٤) آل عمران : ١١٣ — (٥) المائدة : ١٣

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) .

ومع اختلاف العلماء فى كون هذه الآيات وردت لأسباب خاصة ، أو أن العبرة فى ورودها بعموم اللفظ ، ثم مع كون أغلب الأقوال مع الرأى الأول ، إلا أننا هنا يهمنا - بالدرجة الأولى - هذه الدقة فى التحقيق ، مما قد يؤدى إلى الاستشكال على البعض وكما رأينا بين العلماء ، فضلاً عن القارئ العادى ، ثم درس آخر فى عدم إطلاق الأحكام أو التعميم فى الاتهام ، وذلك أدب عال وأسلوب قرآنى تربوى ، حرى بنا أن نتعامل به فى تقييم الأمم والفرق المعاصرة فضلاً عن الأفراد ، وإلا فما العائد على الدعاة والحركات الإسلامية من تعميم إطلاق الاتهامات وتوزيع الأحكام ، وعلى سبيل المثال : إطلاق الألفاظ فى :

الطاغوتية والعمالة على جميع الحكام العرب والمسلمين .

أن النصارى كلهم محاربون ، منصِّرون .

كفر وارتداد جميع العلمانيين .

الرِدّة العامة على المجتمعات الإسلامية .

عداوة وإعلان الحرب من الشرق والغرب قاطبة على الإسلام .

وإذا كان الأمر كذلك فمع مَن سنتعامل إذن أو إلى مَن نتحرك ومن خلال مَن ؟

إننا عندما لا ندقق فى الحكم ، فسيرتد إلى صدورنا ولا شك ما حكمنا به ، وستثار عداوة الكل على دعاة الإسلام ، فضلاً عن إثارة الشكوك والمخاوف حول أى مشروع إسلامى .

وعندما نفتح باب الاستثناء فى الأحكام وهى على الحقيقة فى أكثر الأحوال ،

---

(١) المائدة : ٨٢

كأننا فتحنا باباً للخير ، أو فتحناه لكل مَن يفكر فى التوبة ، وهيئناه لمن ينوى الحياد . فضلاً عن ذلك سيسهل على الدعاة الحركة ويفتح لهم الآذان .

وإذا لم يكن بوسعنا أن لا تعمم من باب التعامل مع الحقائق ، فبوسعنا أن نتعلم شيئاً من الحكمة ، أو الدبلوماسية ، أو استراتيجية عدم إدارة المعارك مع جميع الأعداء دفعة واحدة [1] ، وقبل أن لا يكون لأهل الدعوة حول ولا قوة .

*

● شئ من الدبلوماسية من الأمريكان :

لقد أصبح من حكم المعلوم أن الموقف العملى لدولة أمريكا فى العقود المتأخرة ، لا يخفى قدراً مبيَّتاً من النوايا السيئة للحركات الإسلامية ، أو كما يطلقون عليها « الأصولية » . هذا إن لم يحمل ذلك الموقف على الإسلام وجه العموم ، ولكن عندما اضطرت أمريكا لأن تعلن موقفها الرسمى من الأصولية الإسلامية ، وكأنها شاءت أن تلقن الحركات الإسلامية - فضلاً عن حكومات العالم الإسلامى - درساً فى عدم التعميم ، وإن شئت شيئاً من تلك الدبلوماسية .

فماذا أعلنت الحكومة الأمريكية فى موقفها الرسمى من هذه القضية الحساسة ، وهى على تلك المكانة الدولية ، ومما لا يحاسبها عليه أحد ؟

لقد أعلنت المتحدثة باسم الخارجية الأمريكية « مارجريت تاتويلر » :

١ - « أنّ استخدام تعبير « الأصولية » يتم بصور ومفاهيم مختلفة ، وهو يعنى عدة مفاهيم دينية وسياسية واجتماعية ولا يمكن وصف تلك الاتجاهات بأنها أصولية وما ينطبق على مجتمع يختلف عن مجتمع آخر .

٢ - أن الولايات المتحدة لها علاقات ممتازة مع عدد من الدول الإسلامية أو الدول التى تلتزم بالدين الإسلامى وتحترمه وسوف تستمر هذه العلاقات » [2] .

فهل لنا أن نتعلم شيئاً من الحكمة ، ولا سيما وهى ضالة المؤمن .... ؟

*

---

(١) يرى بعض مؤرخى السيرة أن تطور موقف الرسول ﷺ مع اليهود والنصارى فى بداية الدعوة كان مراعياً لهذا المبدأ .

(٢) الأهرام فى ١٣ يناير ١٩٩٢

ثالثاً - التعامل مع الظاهرة :

كيف عسانا أن نتعامل مع مظاهر العداء والاستفزاز ، من مثل : محاولات التنصير فى ديار المسلمين ، ومع ما يشاع من مخططات الاستيعاب والسيطرة

إن مدار الأمر مرتبط ارتباطاً كبيراً بما يكون عليه أهل الدعوة من القوة والقدرة والتأثير فى الدوائر الشعبية ودوائر صنع القرار من ناحية ، ومن ناحية أخرى على موقف السلطان ودرجة غيرته على الدعوة وأهلها .

وما عدا ذلك ، فيأتى قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) ، أصلاً فى وضع كالذى تعيشه الدعوة والدعاة اليوم .

ومع أن علماء التفسير قالوا بنسخ هذه الآية بآيات القتال بسورة التوبة ، فإن البعض يرى بأن الحكم يدور مع العلّة ، فالأصل العمل بالصفح والعفو إلى حين القدرة والنصر .

يقول صاحب المنار فى هذه الآية : « ثم بعد الوعد بالنصر والإرشاد إلى الاعتماد فيه على القدرة ، دلَّهم على بعض وسائل تحقيقه ، كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة » (٢) .

إن كثيراً من شباب الحركات الإسلامية وممن ليس لهم حَوْل ولا قوّة ، فضلاً عن دائرة السلطان لا تنتصر لدعوتهم ، فضلاً عن رفعها سلاح الوحدة الوطنية فى وجه شعاراتهم ، هؤلاء ، لا يروق لهم الأخذ بالصبر أو الصفح أو بالعفو ،

---

(١) البقرة : ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا .

وبالتالى فلا بد من رد الكيل كيلين . ونجحت بذلك مخططات الإيقاع بالحركات الإسلامية فى مستنقع الفتنة الطائفية وبدون أن يسكبوا شيئاً واحداً فى صالح قضيتهم الأساسية ولا حتى الفرعية ، والأمثلة على ذلك كثير ، ومن النماذج المتكررة دائماً أن يأتى - على سبيل المثال - شاب نصرانى يشتبك أو يستفز شاباً مسلماً فى الجامعة أو الشارع تحت أى مبرر ، فيتعاركان ، فتعلن الجماعة الإسلامية الحرب ، لتثور ثائرة المسلمين ، ولتتحول حالة نزاع فردية شخصية -وعلى أكثر الاحتمالات تكون استفزازية - تتحول هذه إلى قضية كبرى ، تستجلب القوات المركزية ، ثم الإعلام العالمى الذى ينثر الدموع على الأقلية المعززة بسيف المعز ، وتنتهى الزوبعة ، ولا يصاب النصارى بأكثر مما يناله المسلمون والقضية الإسلامية على وجه سواء . هذا مع أنه كان بالإمكان تحويل القضية إلى محاكم الدولة لتحكم فيها ، ولكن - وللأسف - لتصبح القضية ، قضية عزة وإثبات وجود .

*

رابعاً - القضية أكبر من إثبات الوجود :

عندما بايع الأنصار رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية وقد بلغوا السبعين ، حدث موقفان مهمان ، يُستحب أن نستحضرهما فى هذا الباب :

الموقف الأول : « عندما تم إبرام البيعة وكانوا على وشك الانصراف ، وقد أحس بهم أحد كفار قريش فى آخر لحظة ، وما كان أمامه إلا أن صاح فى قومه من على مرتفع : يا أهل الأخاشب (المنازل) ؛ هل لكم فى محمد والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟ وقبل أن يفضهم رسول الله ﷺ إلى رحالهم ، وضع المبايعون أيديهم على مقابض السيوف ليستلوها من أغمادها أمام هذا النداء قائلين : لئن شئتَ يا رسول الله لنميلن غداً على أهل مِنًى بأسيافنا . ويأتى الجواب النبوى الحكيم : « لم نؤمر بذلك ولكن ارفضوا إلى رحالكم » [1] .

(١) من المنهج الحركى للسيرة : منير الغضبان (بتصرف) .

القضية إذاً ليست إثبات الوجود ، والاستجابة إلى أى استفزاز ، أو ردّة فعل ، ومن ثَمَّ الاستعراض بحجم الأتباع .

الموقف الثانى : « عندما تأكد لدى زعماء مكة خبر إتمام البيعة ، وأسرعوا فى مطاردة حجيج يثرب ، لم يتمكنوا إلا بالإمساك والقبض على سعد بن عبادة ، واقتادوه مكبلاً وانهالوا عليه ضرباً ، فهل تدخل المسلمون أو رسول الله ﷺ لحمايته أو تخليصه ؟ لا لم يكن ذلك ، ولم يتدخل أحد لحمايته أو إطلاق صراحه ، فلقد كانت الضرورة أن لا تُكتشف البيعة ، والتى سيؤكدها التدخل ، ومرّ هذا الحدث الفردى ولم ينقذ سعد إلا قوانين وأعراف الجاهلية ، وحين جاء المطعم بن عدى والحارث بن أمية وخلّصاه من أيديهم ، إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما بالمدينة » [(١)] . وهكذا حينما تُضبط العواطف ، وتكون رؤيا المستقبل واضحة ، تتحرك مسيرة الدعوة غير عابئة بالاستفزازات أو تتعجل تحقيق المكاسب غير المؤكدة .

*

خامساً – بعيداً عن الإثارة وتقدير المكاسب :

عندما همّ المسلمون بعض الوقت يسبون أصنام الكفر ، فيسب الكفار الله ، فأنزل الله قوله : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [(٢)] .

وقد رد صاحب تفسير المنار – على استشكال بعضهم النهى ، بما ورد فى الكتاب العزيز من وصف آلهتهم بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تقرّب ولا تشفع ، وأنها هى وإياهم حصب جهنم ، وتسميتها بالطاغوت وهو مبالغة من الطغيان ، وجعل عبادتهم طاعة للشيطان فقال : « وقد يُجاب عنه بأن هذا لا يسمى سباً ، وإن زعموه جدلاً ، لأن السب والشتم هو ما يُقصد به الإهانة والتعبير ، والغرض

---

(١) من المنهج الحركى للسيرة : منير الغضبان (بتصرف) . (٢) الأنعام : ١٠٨

من ذكر معبوداتهم بذلك بيان الحقائق ، والتنفير من الخرافات والمفاسد ، وأجيب على تقدير التسليم ، بأن ما يستحق جائز فى نفسه ، وإنما يُحظر إذا أدى إلى مفسدة أكبر منه ، والحال هنا كذلك . ومن الاستشكال أيضاً قول آخر وهو : كيف نهانا الله تعالى عن سب مَن يستحق السب لئلا يُسب مَن لا يستحقه ، وقد أمرنا بقتالهم وإذا قاتلناهم قتلونا وقتل المؤمن بغير حق منكر ؟ .... وأجاب عنه الشيخ بأن سب الآلهة مباح غير مرفوض وقتالهم فرض ، وما كان مباحاً ينهى عما يتولد عنه ويحدث ، وما كان فرضاً لا ينهى عما يتولد عنه .. وقد أورد الشيخ محمد رشيد رضا من فروع نفس المسألة : على أن إطلاق لفظ الكافر قد يكون حق على الملاحدة المنكرين لوجود الله عَزَّ وجَلَّ ، ولكن من هذا الباب يعتبر إطلاقه على كل متدين سباً وإهانة ، فيترتب على هذا أن إطلاقه على من يحرم إيذاؤه من أهل الأديان محرَّم شرعاً إذا تأذى به ولا سيما فى الخطاب . وذكر الشيخ شاهداً على ذلك من فتاوى الحنفية وهو فى « معين الأحكام » قال : إذا شتم الذمى يعزر لأنه ارتكب معصية . وفيه نقلا عن « الغنية » : ولو قال للذمى : يا كافر ، يأثم إن شق عليه » [1] ... انتهى .

وكما كان السباب من أساليب الإثارة ، وقد ورد فيه النهى لما يتبعها من مفاسد أكبر ، فما بالك بأساليب التهديد والتصريحات التى تستفز وتثير الأحقاد والضغائن ، وكل ما يقال تحت باب الاستعداء .

وهناك من الأمثلة التى تؤاخذ على ممارسات بعض رموز الحركات الإسلامية ، وخاصة الشباب المتحمس منهم ، بدءاً من الشعارات والهتافات التى يهتف بها فى الساحات ، وعلى الأشهاد ، خذ على سبيل المثال ذلك الهتاف وهو جزء من عدة مقاطع يُختم بـ :

« فليَعُـد للدين مجده أو تُـرَق فيها الدماء »

فأى دماء إذن ، والكلام موجّه لمن ؟

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا - الجزء السابع .

نفس الشئ ، وعلى سبيل التصريحات ، التى أحياناً تأتى بدافع الحماس ، أو إغراء ظروف المناسبة للقائل ، وعندما يصبح على جانب من القوة ، فيُطلِق العنان لنفسه ، ولا يدرى أن العالَم كله يرصد سقطات اللسان ، لا حقيقة المواقف والمبادئ .

وكثير منا يذكر آثار ذلك التصريح الذى أطلِق فى غمرة الفرحة بالفوز من أحد خطباء الحركة الإسلامية فى الجزائر ، عقب فوز جبهة الإنقاذ فى الانتخابات البرلمانية وتهيئها لاستلام السلطة ، أو هكذا كان الظن ، وحيث دعا ذلك الخطيب جماهير الجزائر للاستعداد لتغيير عاداتهم فى اللباس والشراب ... وهكذا ، ونذكر كم استُغِل ذلك التصريح فى تهييج الرأى العام . ومن المفيد القول هنا بأنه إذا كانت هناك قناعة بأن الآخرين يُبيِّتون أمراً بليل بغض النظر عن أفعالنا ، فهل يصبح ذلك مسوغاً لكى يُعطوا الفرصة للانقضاض .

إننا أصبحنا فى حاجة ملحة الآن لأن نراجع رصيد العمل الإسلامى فى الاستعداء ، ومن ثَمَّ إخضاع تراث القادة والزعماء والموجهين فضلاً عن خطباء المنابر لتلك المراجعة .

وأعتقد أننا لو قمنا بذلك ومع استحضار الدوافع الزمنية لكل منها لوجدنا أن أغلب هذا التراث كان واقعاً تحت تأثير استجداء الحماس الجماهيرى ، لا تحت تأثير دوافع الحكمة والمصلحة وللرؤية المستقبلية .

ولنا أن نتساءل : إلى أى مدى تتأثر قرارات القادة والدعاة وحاجتها لتأجيج حماس ومشاعر الجماهير ومَن يقود الآخر ؟؟

ثم لنا بعد ذلك استحضار درس الحديبية وكم ضبطت الحكمة النبوية حماسَ وغضب الأتباع .

*

سادساً - الوقاية وتحصين الذات خير من العلاج والاستعداء :

إن التعامل السليم ليس فى استثارة ذلك الآخر ، الذى يكن لك شعوراً عدوانياً ، ثم استعراض القوة أمامه ، وخاصة إن كنت لا تملك مقوماتها ، وليس كذلك ، بالمسارعة والتزلف إليه والتذلل لكسب وده ، واسترضائه بدون مبرر ، وكمن أنكر عليهم القرآن : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [1] ، وإنما يرتبط ذلك بمدى القدرة على الانضباط وفق المبادئ التى يدعى إليها من ناحية ، وبمدى استشعار مسئولية حمل الدعوة وأهمية التأثير فى الخصم وبما يحمله على الإيمان بالدعوة أولاً وقبل كل شئ من ناحية أخرى ، وليس مجرد إشعاره بمدى القدرة على المنافسة لاستحواذ سلطان ما والحاجة إلى الانتصار عليه ، ثم بمدى القدرة كذلك على تبرئة ساحة الخصام من مبررات ضعيفة ، يضعف أمامها الخصم ومما يدفعه على الاستمرار فى العناد والعداوة . وذلك من خلال عدة أساليب ، فمن خلال استيفاء أسلوب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تارة ، ثم من خلال الدفع الحسن تارة أخرى ، كذلك ، من خلال منح مساحة للحوار والجدال الحسن لتصفية الحجج والشبهات فضلاً عن الظنون .

وأهم من ذلك ، وفى خط متواز ، امتلاك وسائل القوة الذاتية ، وتحصين الذات ضد مداخل الاختراق ، وهذا الأخير هو ما أفاض فيه القرآن ووفى تنبيهاً وتحذيراً .

والدليل على ذلك ومما أفاض به القرآن فضلاً عن السُّنَّة ، وسنكتفى هنا بالاستشهاد بالنصوص القرآنية الدالة على بعض من آفاق التعامل والحذر مع الآخر :

---

(١) المائدة : ٥٢

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٤) .

ثم أخيراً وهو الأهم فى هذا الباب : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ... ﴾ (٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ... ﴾ (٧) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم

(١) النحل : ١٢٥ — (٢) العنكبوت : ٤٦ — (٣) آل عمران : ٦٤
(٤) فصلت : ٣٤ — (٥) آل عمران : ٧٣ — (٦) آل عمران : ١٠٠
(٧) آل عمران : ١١٨

مُؤْمنينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاة اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) .

القضية إذاً باتت فى أرض المسلمين ، والجهد إذاً والحماس يجب أن يتجه إلى مجتمع المسلمين ، وفى اتجاه تحصين المجتمع المسلم بالإيمان والوعى بدينه ثم بالآخر . وأن ذلك هو الأساس وليس بفتح الجبهات ومن خلال استدعاء عداء العالم من حولنا ، ونحن بعد دون المواجهة ، وعندما يحصن المجتمع المسلم حق التحصين ، وبأداء ما علينا نحو ذلك ، سيتحول فعل الآخر المعادى إلى لا شئ ، إن لم يرتد سيفه إلى نحره ، بإصراره على الكيد الخبيث ، وبعدم إصغائه لنداء الهدى وداعى الإيمان والرشاد . وعندئذ سيتحقق قول الله سبحانه ووعده ، وستتضاءل خطورة الآخر إلى أن تؤول إلى الصفر .

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم ، مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) .

* * *

(١) المائدة : ٥٧ - ٥٩
(٢) آل عمران : ١١١ - ١١٢
(٣) آل عمران : ٢٠٠
(٤) آل عمران : ١١٠

الفصل الثالث

تعدد الجماعات

بين التسديد والتبديد

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

وهل بعد توبة الأمة من الصراع المذهبى ، تتورط الآن فى الدخول إلى صراع جديد دعوى ؟

وهل الصراع الجديد الدعوى ، لا بد من أن يستكمل حلقات صراع الماضى المذهبى كلها ، بالمرور بالعلل والآفات والنتائج التى تعود على الدعوة ، ثم على الأمة جميعاً ؟

وهل نحن بصدد عِلّة خطيرة ألصقت بصراع الماضى ، وحين « تحوّل ولاء جماعات المذهب أكثر لانتماءاتها المذهبية من ولائها للفكرة التى حملتها أو للأمة التى تنتسب إليها » [1] ، وحين « تحوّلت أهداف العمل الإسلامى على يد المذاهب ، من السعى لتحكيم الإسلام ، إلى تحكيم رجال المذهب أنفسهم ، ومن ثَمَّ انتهاء أهداف العمل عند مشاركة زعماء المذهب ورجالاته فى إدارات الدولة وفوزهم بمناصب القضاء والأوقاف والتعليم والحِسْبة وغيرها » ؟؟ [2] .

من الواضح أن الجماعات الإسلامية المعاصرة – ومع اختلافها السلبى – تمر أو اعتراها كثير من مظاهر الصراعات المذهبية السابقة ، ومن خلال المرور بالمنزلقات الى تجاوزتها تجربة الماضى ، ومن ثَمَّ بدأ يلحق بها نفس الآثار

---

(١) ، (٢) من كتاب « هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، وهكذا عادت القدس » للدكتور ماجد عرسان الكيلانى .

السلبية ذات المردود الخطير على الأمة من النواحي الاجتماعية والتربوية والسياسية ، وإلى عتامة الأفق وتجسيد مرحلة الضعف والهزيمة ، واستمراء الأدعاء إذلالها وتركيعها .

منزلقات تدفع بعضها البعض ما لم يتداركها المبصرون ، ولتتحول أهداف البناء التى سعى إليها المؤسسون إلى معاول هدم فى أيدى المتعصبين ، فتبدد ما ارتفع من البنيان وتنسف ما عَزَّ فيه الجهد ، وليتهدد الجميع آثار العدوان ، وقد ينالهم مآل غيرهم فـ ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾ (١) .

فما هى هذه المنزلقات التى بدأت تعلن بنذرها ؟ ولتعيد التاريخ إلى الوراء ؟

المنزلق الأول : شئ من العُجْب والاستعلاء يعترى الجماعات ، فيحرك فى كل جماعة ، أنها صاحبة الحق الوحيد فى التواجد على مسرح الحياة الإسلامية ، مع تعدد أسباب ادعاء هذا الحق ، فهؤلاء مثلاً الحنابلة « بسبب جهاد مَن سبق منهم منذ أيام ابن حنبل ، وبسبب المحن التى عانوا منها - أصيبوا بداء العُجْب - وأصبحوا يرون أنفسهم أوصياء على المجتمع الإسلامى وأنهم هم وحدهم أهل السُنَّة والفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية ، ولهم وحدهم حق التواجد ، وحق الدعوة إلى الإسلام ، وحق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبسبب هذا الاعتقاد صاروا إذا قام إلى جانبهم مَن يحاول الدعوة إلى الله اعترضوا عليه وقاوموه وأثاروا الشغب ضده فى المساجد وخارجها » (٢) .

كذلك كان الأشاعرة « بسبب دور الإمام أبى الحسن الأشعرى فى دحض عقائد المعتزلة يعانون من عقدة الاستعلاء الثقافى ، فقد كانوا يرون أنفسهم أهل الثقافة والفكر ويرمون الحنابلة بالسطحية وضيق الأفق » (٣) .

---

(١) الحشر : ٢

(٢) ، (٣) من كتاب « هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، وهكذا عادت القدس » د . ماجد عرسان الكيلانى .

المنزلق الثانى : نمو ظاهرة العصبية وتجميع الولاء وتحديده ، ونموها أكثر فى الأجيال المتتالية وفى التلاميذ حيث : « تسرب المذهبية الحزبية إلى صفوف الطلبة وإفساد روابطهم وعلاقاتهم ، وتدريبهم على الخصومات والصراعات التى كانت قائمة فى المجتمع .... ونتيجة لذلك تحولت مجالس الدرس وساحات المدارس إلى ميادين لمناصرة آراء المذاهب وتفنيد آراء المخالفين ومهاجمتهم بالتصريح والتلميح .... ، ولقد ترتب على ذلك أن أصبحت المصادمات وحوادث الشجار بين مجموعات الطلبة ظاهرة بارزة فى المدارس ، فكثيراً ما كان أتباع المذهب الواحد يستقدمون شيخاً من رجال المذهب نفسه أو من مدينة أخرى لإلقاء درس أو محاضرة عامة وخلال هذه الدروس والمحاضرات يجرى التعريض بالمذاهب الأخرى فتنشب الفتن وتثور الخصومات » [1] .

ومن ناحية أخرى « شكلت المذاهب طوائف اجتماعية أشبه ما تكون بالأحزاب المتناحرة .... ، وقد صار المذهب يضم أخلاطاً من الناس فكان منهم المشايخ والتجار والطلبة والعوام .... ، وكانت تربط هؤلاء جميعاً رابطة هشة تقوم على المظهرية أكثر من الجوهر . إذ يكفى الفرد أن ينتمى للمذهب دون فهم أو تطبيق ، وأن يصحب أفراد المذهب فى رواحهم ، وأن يتزيا بزيهم وأن يكدس كتب المذهب فى مكتبه دون أن يقرأ صفحة واحدة منها فى عمره ، لينال نصرتهم ويشاركهم مكاسبهم . وكان أولئك الذين يخالفون تقاليد المذهب فى الخصومة أو يستعصون على الانتماء إليه يصبحون هدفاً للإيذاء وعُرضة للطعن والتشكيك فى الدين والخُلُق مهما كان حظهم من الفهم والإيمان والاستقامة » [2] .

المنزلق الثالث - الإرهاب الفكرى : « ولقد أفرز هذا الالتزام المذهبى نوعاً من الإرهاب الفكرى ضد المستنيرين من أعضاء المذاهب نفسها وفرض عليهم التوقف عن التفاعل الفكرى مع نظائرهم من خارج المذهب وألزمهم بالاقتصار

---

(١) ، (٢) المرجع السابق .

على مطالعة كتب المذهب وتصانيفه . والذين كانوا يخرجون على تقاليد المذهب فى الانغلاق والتعصب وينفتحون على الآخرين يصبحون هدفاً للاتهام بالنفاق وعدم الالتزام والخروج على تعاليم المذهب مهما كانت منزلتهم العلمية أو رتبتهم المذهبية .... ، وقد روى ابن عقيل طرفاً من تجاربه فى هذا المجال ، فقال: وكان أصحابنا الحنابلة يريدون منى هجران جماعة من العلماء . وكان ذلك يحرمنى علماً نافعاً » [1] .

وامتد ذلك الإرهاب ضد أتباع المذاهب الأخرى بالطعن والتشكيك والنَّيْل من الأئمة والقيادات والقدح فى الدين والعقيدة ، ومن روايات التاريخ : « أن جماعة من الحشوية والأوباش والرعاع المتوسمين بالحنبلية أظهروا ببغداد من البدع الفظيعة والمخازى الشنيعة ما لم يسمح به ملحد فضلاً عن موحد ، وتناهوا فى قذف الأئمة الماضين وقلب أهل الحق وعصابة الدين ، ولعنهم فى الجوامع والمشاهد والمحافل والمساجد ، والأسواق والطرقات ، والخلوة والجماعات . ثم غرّهم الطمع والإهمال ومدّهم فى طغيانهم الغى والضلال إلى الطعن فيمن يعتضد به أئمة الهدى وهو الشريكة الوثقى . وجعلوا من أفعاله الدينية معاصى دنية ، وترقوا فى ذلك إلى القدح فى الشافعى » [2] .

ثم روى أيضاً من فتن الزمان فى هذا الشأن : « ومن الفتن ما حدث عام (٥٢١ هـ) حين قدم أحد رجالات الأشاعرة المشهورين إلى بغداد ، وهو أبو الفتح الاسفرائينى . فقد جاء هذا إلى بغداد واتخذ جامع المنصور مكاناً للدرس والوعظ ، فالتف الناس حوله وتأثروا به . فلم يرق ذلك للحنابلة فجمعوا أنفسهم ودخلوا على الاسفرائينى وعنّفوه ثم خرجوا يصيحون فى الشوارع : « هذا يوم حنبلى ، لا شافعى ولا أشعرى » [3] .

* *

---

(١) ، (٢) ، (٣) المرجع السابق .

وبعد استعادة ذاكرة التاريخ ، لسنا فى حاجة لسرد روايات شهود العصر ، للتدليل على أن الصراع بين الجماعات الإسلامية العاملة فى الساحة الآن ، قد تجاوز ما مضى وما زال يعانى من تداعيات ذلك ، إن لم تدركه وتدركنا جميعاً عناية الله ثم استدراك العقلاء .

ووجه الخطورة فى هذا الأمر ، أنه بات يشكل عبئاً أكبر أمام مواجهة التحديات ، وحيث بات العمل الإسلامى مهدداً من الداخل ، ومن القابلية للتشقق إلى القابلية للتصادم ، إلى القابلية لهدم بعضه بعضاً ، وبعد محاولة كل فريق فى نسف تجربة الآخر ، ثم إلى رفع سلاح التشكيك العقدى والإيمانى ، فهل يُنتظر بعد ذلك للبناء أن يرتفع فضلاً عن أن يستقر ؟

ولك أن تتناول بعض من نصوص الهدم والتبديد المتبادل :

فهذا يهجو ويرمى إحدى الجماعات ، وبداية من : « وما زال الإخوان فى كل قُطر إسلامى هم طليعة الفشل السياسى . وهم الذين يقفزون حيث لا يحسن القفز ، ويختبئون حيث لا يجوز الاختباء ، وينامون حيث يجب الصمود والحياة ، وإذا هبَّت العاصفة كانوا أول مَن يشرع القلاع والوقت هو وقت طى القلاع وانتظار مرور العاصفة » [1] .

وانتهاءً بـ « هل المنهج الإخوانى العقدى الذى يُخرج أمثال التلمسانى منهج سَلَفى لا غبار عليه ، وهل الجماعة التى تسمح بتصدر صفوفها ويكون مرشدها العام يقول هذا الكلام جماعة سَلَفية ؟ تباً لهذه السَلَفية إن هذا هو نتاجها وهؤلاء هم رجالها ومرشدوها وقادتها » [2] .

ومن البدهى أن هذا لم ينشأ من فراغ ، وقد يكون أثر معاناة من رمى وتشكيك من الطرف المهجو ، وهذه هى شكوكهم : « لذلك رأينا من الواجب علينا دعوة الناس إلى عقيدة النجاة فتعرَّض لنا إخوة لنا وطعنوا فى تصرفاتنا ووصفونا بأوصاف شتىً : منها القصور فى الدعوة ، ومنها الجهل بالواقع ،

---

(١) ، (٢) وقفات مع كتاب للدعاة فقط - لمحمد العجمى .

ومنها دعوتنا كلام بلا عمل ، ومنها أصحاب فقه الأوراق ، ومنها حفظة الحواشى والمتون ، بل وصلوا إلى رمينا بعمالة السلاطين ، بل سموا منهجنا وأفكارنا وعقيدتنا « فلسفة باهته » وغير ذلك كثير » [1] .

وهكذا أصبح فى غيبة الحوار ، ومنهجية النقد ، فضلاً عن فقه الاختلاف ، فضلاً عن فقه التسديد والتصويب ، ذلك التقاذف القاضح حديث الساعة ، وما تطفح به الأوراق والمنتديات .

*   *

● من أسباب تنامى الظاهرة :

يشكل ضغط الواقع وتحدياته ، أكبر عوامل تفجير الظاهرة والإسهام فى دفعها للتصدع والتصادم ، فكلما أخفقت مسيرة الحركة الإسلامية فى تحقيق مكاسب لصالح الدعوة الإسلامية ، أو فى اتجاه فض الإشكاليات التى تعوق انطلاقة الحياة الإسلامية ، فضلاً عن الوصول لتصور سليم ومطمئن للتعامل مع هذا الواقع ، كلما استمر مسلسل الانشطار .

ولنقرأ معاً هذا النص الذى يرى من خلاله صاحبه نقطة الخلاف بين جماعته وبين جماعة أخرى ، فها هو ذا يقول : « أما نقاط الخلاف - أخى المسلم - فهى فى أصلها واحدة ولكن تشعبت عنها نقاط أخرى يطول سردها ، فهى فى البداية يمكن إجمالها فى هذا السؤال : هل المستجدات العصرية يجب أن تخضع للشرع أم أن الشرع يجب أن يخضع للمستجدات العصرية والتطورات السياسية؟ فإن كانت الأولى حقاً فنحن على الحق وهم على الباطل ويجب عليهم الرجوع إلى الحق لكى تتحد كلمة المسلمين ويقفوا ضد عدوهم ، وإن كانت الثانية حقاً فنحن على الباطل وهم على الحق ويجب علينا أن نبادر بالرجوع إلى الحق وإلا كنا دعاة فُرْقة وضلالة » [2] .

---

(١) ، (٢) الطريق إلى الجماعة الأم - لعثمان نوح .

والنص السابق نفسه يسوقنا إلى عامل مهم آخر وراء تصعيد الظاهرة ، وهو التعامل العاطفى - أو غلبته - على كثير من رموز الإسلاميين ، سواء أكان فى التناول مع تحديات الواقع ، أو فى قضايا اختلاف الرأى والمذهبية الدعوية .

ولنعد إلى تساؤل الأخ - غفر الله له - لنجد دلائل لهذه الآفة ، والمسيطرة على غالب الخطاب الدعوى ، فصيغة السؤال بداية استفزازية ، وطريقة التحاكم بها إلى الجمهور فى غيبة الطرف الآخر أكثر استفزازاً ، فضلاً عن أنه نصب نفسه - مع كونه طرف فى الشكوى - حاكماً فى نفس الوقت ، يحدد مقاييس الإخضاع لكل من الشرع والمستجدات ، ومن كون الحكم على الطرف الثانى أنه اختار ابتداءً طريق إخضاع الشرع للمستجدات العصرية والتطورات السياسية ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على درجة الاستخفاف بعقل القارئ ، أو الاغترار بالنفس واعتقادها امتلاك الصواب المطلق ، فضلاً عن غياب التعامل المنهجى مع مثل تلك القضايا الغاية فى الحساسية ، وقد يرجع السبب فى غلبة هذا التيار العاطفى على مقولات الصحوة ، لقوة التمثيل الشبابى ودوره الأساسى فيها وغياب العلماء والمربين .

* *

● المشكلة ليست فى التعدد :

المشكلة ليست فى الخلاف الذى نشأت عنه الحاجة للتعدد ، وطالما ظل هذا الخلاف اختلاف تنوع ، وطالما ساعد هذا التعدد على استيعاب القدرة على تحقيق مزيد من الأهداف ، وعلى استيعاب أكبر مساحة أفقية فى الانتشار ونشر العلم والوعى الإسلامى بين جماهير الأمة ، وعلى استيعاب القدرة على الاستمرارية وعدم اختفاء دور المُذكّر حيناً من الدهر وحينما تحول بعض الأسباب القاهرة دون استمرارية بعض فعاليات العمل الدعوى ، وأخيراً القدرة على تفجير طاقات أكثر وكفاءات نوعية فى البذل ، ومن ثَمَّ إثراء العمل الدعوى .

* *

● من أين يبدأ الطريق إذن ؟

لحل إشكالية الصراع الناشئة عن المذهبية الدعوية ، ومن ثمَّ الحفاظ على المكتسبات التى تحققت بجهد وعرق السنين ، وآلام وعذابات المسجونين ، ودماء الشهداء ودموع الأيتام ومعاناة الأرامل ... ، ومن أجل التخلص من مأساة التبديد التى تجعل جهد الجميع كنفخ فى رماد ، يجب القناعة بعدة أمور ، وقبل ذلك ضرورة استحضار الرغبة الصادقة فى وضع حد لهذا الاستنزاف ، وهذه الأمور هى :

أولاً : اعتراف كل الجماعات بأهمية وجود الآخر ، وحاجة ساحة العمل الدعوى إليه ، ومن ثَمَّ وضع ضوابط للعمل الجَماعى ، تخلق فى حس المنتمين أهمية الاستفادة واستكمال الحاجات التربوية من انفتاح الساحة الدعوية على بعضها .

ثانياً : وضع خطوط عريضة لأهداف وضوابط العمل الدعوى تستوعب أكبر قدر من نقاط الاتفاق ، وذلك لم يتأت إلا من خلال ساحات الحوار ، والمؤتمرات العلمية ، ومن ثَمَّ استكمال الدور الذى بدأه الشيخ حسن البنا رحمه الله بالأصول العشرين .

ثالثاً : عدم إشغال الساحة بالقضايا المختلف فيها ، مع إمكان أن يدلى كل ذى رأى برأيه وبدون تسفيه للآراء الأخرى ، وليسع الجميع ما وسع المسلمون على مدار القرون .

رابعاً : التعاون على إنشاء وإثراء فقه التسديد وبمبادرات عملية رائدة ، ومن ثَمَّ إبراز المنهج العلمى الإسلامى فى التقويم والتناصح ، وانطلاقاً من الروح الأخوية الإسلامية ومن وحدة الهدف والغاية والإحساس بالخطر الواحد .

* *

● على طريق التسديد :

وفى سبيل تفعيل منهج التسديد مع الأقران ورفقاء الطريق ، فلنستحضر معاً هذه المعانى ، إن لم ترق لمستوى الحقائق ، وأهم من ذلك أن تنفتح إليها صدورنا وحتى تجد الطريق إلى قلوبنا وأعماق قلوبنا :

أولاً - كل بنى آدم خطّاء :

فعندما تكبر أخطاء الآخرين فى أعيننا فلا نكاد نرى غير ذلك ، فلنتذكر صيحة سيدنا عيسى عليه السلام فى بنى إسرائيل : « مَن كان منكم بلا خطيئة .. فليرجم أخاه بحجر » .

فحينئذ سيتوارد على الخاطر ، جملة من المعانى ، تبدأ بالمعنى النبوى الكريم : « كل بنى آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوابون » [١] ، فيعقبها مقالة ابن القيم ولمزيد من الإيضاح : « وكيف يُعصم من الخطأ مَن خُلق ظلوماً جهولاً ؟ ، ولكن من عُدّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدّت إصاباته » [٢] .

ثم تتأتى مقالة هذا الشاعر فى أبياته المحفوظة فى ذاكرة التاريخ :

والمرء يعجب من صغيرة غيره	أى امرئ إلا وفيه مقال
لسنا نرى من ليس فيه غميزة	أى الرجال القائل الفعال

*

ثانياً - كلاكما محسن :

يروى النزّال بن سبرة عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : سمعتُ رجلاً قرأ آية سمعتُ النبى يقرأ خلافها ، فأخذتُ بيده ، فانطلقتُ به إلى النبى ﷺ فذكرت ذلك له ، فعرفت فى وجهه الكراهية ، وقال : « كلاكما محسن ، ولا تختلفوا ، فإن مَن كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » [٣] .

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذى وإسناده صحيح .

(٢) مدارج السالكين . (٣) رواه مسلم .

ونحن فى حاجة إلى رجال تُعرف الكراهية فى وجوههم خوفاً من أن تهلك الأمة ، فيكونوا على بصيرة من مداخل التنازع والاختلاف وفى قضايا لا تحتمل ذلك .

*

ثالثاً – الدين النصيحة :

فعن أبى رقية تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه أنّ النبى ﷺ قال : «الدين النصيحة » (ثلاثاً) ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله عزّ وجَلّ ولكتابه ولرسوله – ﷺ – ولأئمة المسلمين وعامتهم » [1] .

والنصحية هى كلمة يُعبَّر بها عن جملة هى إرادة الخير للمنصوح له [2] ، و « النصيحة لعامة المسلمين ، هى إرشادهم إلى مصالحهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم وستر عوراتهم وسد خلاتهم ونُصرتهم على أعدائهم والذب عنهم ومجانبة الغش والحسد لهم ، وأن يحب لهم كما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه ، ومن أنواع نصحهم دفع الأذى والمكروه عنهم ، وإيثار فقيرهم وتعليم جاهلهم ورد مَن زاغ منهم عن الحق فى قول أو عمل بالتلطف فى ردهم إلى الحق، والرفق بهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومحبة إزالة فسادهم ولو بحصول ضرر له فى دنياه ، .... ، وكما قال الفضيل بن عياض رحمه الله : ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام ، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس وسلامة الصدر والنصح للأمة ، وقال أيضاً : المؤمن يستر وينصح ، والفاجر يهتك ويُعيِّر » [2] .

*

(١) رواه مسلم .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى .

رابعاً - منهج أهل الحديث فى التقويم [1] :

١ - فى تقويم المبتدعة :

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية : « .. واللهُ أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق ، وألا نقول عليه إلا بعلم ، وأمرنا بالعدل والقسط ، فلا يجوز لنا إذا قال يهودى أو نصرانى - فضلاً عن الرافضى - قولاً فيه حق أن نتركه ، أو نرده كله ، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق » .

وقال ابن حجر : « فالمعتمد أن الذى تُرَد روايته : مَن أنكر أمراً متواتراً من الشرع معلوماً من الدين بالضرورة ، وكذا مَن اعتقد عكسه ، فأما مَن لم يكن بهذه الصفة وانضم إلى ذلك ضبطه لما يرويه مع ورعه وتقواه ، فلا مانع من قبوله » .

* ابن تيمية يعترف بفضائل المبتدعة :

فها هو يقول : « وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير ، وانتفعوا بذلك ، وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاوا مسلمين ، وذلك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير .... وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل ، وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء مَن يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهى بدعة أهل السُنَّة » .

---

(١) كل ماجاء تحت هذه النقطة ، اقتباس بتصرف من رسالة : منهج أهل السُنّة والجماعة - لأحمد عبد الرحمن الصويان فى تقويم الرجال ومؤلفاتهم .

٢ - كلام الأقران يُطْوَى ولا يُرْوَى :

قال الإمام الذهبى : « كلام الأقران بعضه فى بعض لا يُعبأ به ، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد . وما ينجو منه إلا مَن عصمة الله ، وما علمتُ أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصدِّيقين . ولو شئتُ لسردتُ من ذلك كراريس » .

وقال السبكى : « والحذر الحذر من هذا الحسبان ، بل إن الصواب عندنا أن مَن ثبتت إمامته وعدالته ، وكثر مادحوه ومزكوه ، وندر جارحوه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبى أو غيره ، فإنَّا لا نلتفت إلى الجرح فيه ونعمل فيه بالعدالة . ولو فتحنا هذا الباب وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة ، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون » .

وقال ابن حجر العسقلانى : « واعلم أنه قد وقع من جماعة الطعن فى جماعة بسبب اختلاف فى العقائد ، فينبغى التنبه لذلك وعدم الاعتداد به إلا بحق » .

*

خامساً - من مقاييس التقويم :

١ - تحكيم الشرع لا الهوى :

يقول الإمام ابن تيمية : « وهذه حال أهل الحق والسُّنَّة يعرفون الحق الذى جاء به الرسول وهو الذى اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول . ويدعون إليه ويأمرون به نصحاً للعباد وبياناً للهدى والسداد . ومَن خالف ذلك لم يكن لهم معه هوى ، ولم يحكموا عليه بالجهل ، بل حكمه إلى الله والرسول ، فمَن يُكفِّره الرسول ، ومنهم مَن يجعله من أهل الفسق أو العصيان ، ومنهم مَن يعذره ويجعله من أهل الخطأ المغفور ، والمجتهد من هؤلاء المأمور بالاجتهاد يُجعل له أجراً على فعل ما مرّ به من الاجتهاد وخطؤه مغفور له ، كما دلّ الكتاب ،

وأما أهل البدع فهم أهل أهواء وشبهات يتبعون أهواءهم فيما يحبونه ويبغضونه ، ويحكمون بالظن والشبهة ، فهم يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » [1] .

٢ - تقدير عامل البيئة والزمان :

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى : « إن الزمان والبيئة عاملان هامان فى حياة الرجال ، فلكل عصر مشاكل ومسائل وملابسات وعوائق تحدد نطاق العمل ، وقد تفرض منهجاً دون منهج ، وأسلوباً دون أسلوب ، والغاية واحدة ، فلا يجوز لنا أن ننقل رجلاً من عصره ، وننتقل به إلى عصرنا ونطبق عليه مقاييس هذا العصر ، ثم نحكم عليه بالفشل والإخفاق ، أو الضعف والعجز ، ونسلبه محاسن نفسه ، ونحرمه من كل مأثرة وكل عظمة ، لأنه لم يحقق شرطاً من شروطنا ، ولم يكن « المثل الكامل » فى الإصلاح المنشود والتجديد المطلوب .... ، إن ذلك التراث العظيم والثروة التى بين أيدينا من كل معطيات الدين فيها نصيب لكل مَن ساهم فيها بإقامة حكم على منهاج الخلافة الراشدة ، ومحاربة الجاهلية والمادية ، والدعوة إلى الله وإلى دار السلام ، وإحياء ما درس من الخصائص الإسلامية وبث الروح الإيمانية فى هذه الأمة ، ولكل مَن أوجد الثقة بالدين ومصادره وتعبيراته ، ورد هجمات الفلسفات الأجنبية ، ولكل مَن دافع عن الفكرة الأصيلة وعصم هذه الأمة من فتنة هددت الإسلام ، ولكل مَن حفظ على هذه الأمة دينها ومصادره ، وقام بتدوين جديد للحديث والفقه ، أو فتح باب الاجتهاد ، ومنح هذه الأمة ثروة واسعة من التشريع وقانوناً منظماً للحياة والمجتمع ، ولكل مَن حاسب المجتمع فى عصره ، وأنكر انحرافه عن مُثُل الإسلام ونظمه ودعاه إلى الإسلام الصحيح ، ولمن سلك سبيل الإقناع العلمى فى العصر الذى كثرت فيه الشكوك واضطربت العقائد ، ووضع لعصره كلاماً جديداً ، ولكل مَن خلف الأنبياء فى الدعوة والتذكير والإنذار والتبشير ، وحرك الإيمان

---

(١) المرجع السابق .

فى النفوس ، وقام فى وجه المادية الجارفة فى عصره ، فحدّ من تأثيرها وأنقذ خلقاً كثيراً من الاندفاع والغرق فيه ، ولكل مَن حفظ هذه الأمة وقوتها السياسية من الانهيار ، زمن أن تكون فريسة للغارات الأجنبية ، ولمن أخضع بدعوته الحكيمة عدواً لم تعمل فيه السيوف ، ولم تقاوم الجنود .... ، ولكلٍّ فضل ، وما التاريخ إلا تأدية الأمانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل ، والاعتراف بالفضل ، وقد قام كل واحد منهم بدوره وساهم بقسطه ، القسط المطلوب منه ، وكان مرابطاً على ثغر من ثغور الإسلام ، وكلٌّ كان سهماً مصيباً فى كنانة الإسلام ، ولولا هذه الجهود المخلصة ، ولولا هذه الأقساط التى قد لا تُرى إلا بمكبرة التاريخ لما وصلت إلينا هذه المجموعة التى نعتز بها ونستند إليها ، ونقتبس منها النور ، سليمة موفورة ، نتباهى بها على الأمم والديانات » [1] .

* * *

(١) رجال الفكر والدعوة - للشيخ أبو الحسن الندوى .

الفصل الرابع

الخطاب الدعوى

بين التهييج والتنهيج

التهييج ، هو العملية التى يُقصد بها ، أنها محاولة خلق إرادة الفعل عند الغير من خلال إيقاعهم تحت خطاب مؤثر قوى مؤقت ، وليس بالضرورة أن يتناسب منحنى التغير الذاتى الداخلى مع متطلبات هذا الفعل ، كما أنه قد لا يتجاوز هذا الفعل أكثر من استحداث طاقة عالية من الانفعال والتأثر الوقتى .

والتنهيج ، هى عملية القصد بها خلق إرادة الفعل عند الغير من خلال إيقاعهم تحت خطاب مؤثر قوى وبطئ ، ومن خلال الانتقال بالغير من درجة ما أو مستوى إلى آخر ، ودون قفز إلى مستويات معينة ، كما أن العلاقة بين جميع المستويات علاقة تصاعدية . وبالتالى فمن المتوقع أن يتحرك منحنى التغيير من داخل النفس ، باستيعاب واكتساب مقتضيات كل مستوى كل حدة .

فخطاب التهييج ، يهدف إلى إثارة رد فعل سريع وفورى من قِبَل الجماهير ، إزاء معنى معيّن ، أو حدث معيَّن ، أو شخص أو جهة معيَّنة ، وبغض النظر عن درجة الاستجابة المتوقعة ، فضلاً عن توابعها ومتابعتها .

أما خطاب التنهيج ، فهو ينطلق ضمن خطة ، قد تكون طويلة المدى ، ولا يجوز الانتقال من خطوة إلى التى تليها قبل اعتماد درجة الإنجاز فى هذه الخطوة .

فخطاب التهييج ، بالإمكان من خلاله أن نُبكى الجماهير على درجة تقصيرها – وعلى سبيل المثال – من خلال تصوير مدى العذاب الذى سيلاقيه المقصِّرون ، ومدى هول جهنم وعذاب الآخرة ، ولكن لا ندرى ما نتيجة ذلك الانفعال بعد ذلك ، وما مستقبله لعدم المتابعة .

ولكن خطاب التنهيج ، هو الذى يأخذ بأيدى المخاطبين ، خطوة خطوة ، نحو اكتساب مقامات الطاعة ، ومهارات الطائعين ، وبما يباعد بينهم وبين جهنم وعذابها .

كذلك خطاب التهييج بإمكانه أن يصنع انفعالاً غاضباً ، ضد حَدَث أو خصم أو قوى معيَّنة ، ومن خلال قوة تعريته أو الكشف عن سوآته ، ولكن لا يكفى هذا الإحداث ، لإحداث الرغبة فى التغيير من داخل الناس ، فضلاً عن تنظيم عمل ما يتناسب مع هذا الانفعال ، فضلاً عن القناعة ، بأنك البديل فى كل الأحوال .

ومن ثَمَّ فبإمكانك اتقان دور المعارض ، ودور المهيج ضد قوى معيَّنة ، والقيام بتعبئة لصالح قوى أخرى ، ولكن ليس من السهولة ومن خلال إتقان هذا الدور فقط ، أن تقود الجماهير ، أو مجتمع ما لإجراء التغيير المناسب .

ولكن من خلال خطاب يكسب الناس آليات تغيير أنفسهم ومجتمعهم ، إنه ذلك الخطاب المنهجى الذى يتعهدهم بالحكمة والتزكية .

وحينما نقرأ قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) . نشعر بجهد ضخم وآليات قوية وطويلة المدى لا بد أن تتجاوز حدود هذا الفعل التهييجى الوقتى ، وليشمل خطاب الرسول أو الداعية ، تلك الآليات والعمليات المنهجية ، والتى ربما تستوعب الزمان والمكان ، وإلا فما هى تلك الحدود التى تستوعب : عمليات تلاوة آيات الله .

عمليات التزكية .

عمليات تعليم الكتاب والحكمة .

وبدون منهج أو خطة واضحين المعالم .

---

(١) الجمعة : ٢

ولقد افتقدت الدعوة الإسلامية المعاصرة ، كثيراً من آليات هذا الخطاب المنهجى ، وعانت من العشوائية والارتجال ، « فالدعوة ليس لها استراتيچية ، ولا خطوط ولا مؤسسات ، وإنما هى ارتجال وردود فعل لما تطرحه مؤسسات الإعلام المحلية والعالمية ، واستجابات أشراطية منفعلة كاستجابات الحمية القَبَلية . وأساليب الدعوة تقتصر على الخطابة والموعظة غير الحسنة القائمة على الانفعال والارتجال ، الجاهلة بالنفس البَشرية ومفاتيحها ، وليس هناك مؤسسات لإخراج مَن يدعو بـ « الحكمة » وإعداد الموازين لمتطلبات العصر . وليس هناك مؤسسات لإعداد المفكرين المتخصصين بـ « الجدال الحسن » الذين يخاطبون الفكر الإنسانى كله بـ « أحسن » مما عنده . وليس هناك مؤسسات لـ « شهود » ما يجرى فى قرية الكرة الأرضية ، و « قراءته » قراءة راسخة محيطة تمهد لـ « حكمة » التخطيط والتنفيذ .

ليس هناك شئ من هذه المؤسسات والاستراتيچيات ، بل الأمر متروك للكر والفر الفكرى - الخطابى - وللجهود الفردية » [1] .

فكان من الطبيعى أن يأتى الخطاب الدعوى انعكاساً لتلك العشوائية وذلك الارتجال ، فاعتمد إلى درجة بعيدة على التهييج والإثارة ، ولتحقيق مكاسب جماهيرية سريعة على أرض الصراع والتحديات ، ونحو حمل الناس سريعاً على هضم المشروع الإسلامى والتجاوب مع دعاته .

فهو تارة يلعب على وتر الكشف عن فساد الأنظمة ، وانحراف المجتمع ، وتارة يلعب على وتر مدى مخالفة الحكم والنظام لأوامر الله وعدم الحكم بالشريعة ، وتارة يُعرِّض بفساد الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، فضلاً عن الإسراف فى الكشف عن المؤمرات التى تحاك بالإسلام ، والظلم الواقع على

---

(١) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها - للدكتور ماجد عرسان الكيلانى (س . ك . الأمة) .

الإسلاميين والدعاة ، ومدى ما يتلقونه من عسف واضطهاد وفى جو ملئ بالانفعال والإثارة .

ولا بد أن نقر ببعض العذر لذلك الخطاب ، وذلك نظراً للمناخ المتوتر التى تحركت فيه الدعوة والدعاة وخاصة فى العقود الأخيرة . وإن كنا لا ننكر فى نفس الوقت مدى مسئولية الدعاة فى خلق هذا المناخ .

* *

فهناك حاجة إذن – وحتى تكسب الدعوة الإسلامية ، على مدى قريب أو بعيد – أن يتحول الخطاب الإسلامى من صيغة التهييج إلى روح التنهيج والمنهجية – ومن مجرد إثارة عواطف الناس من أجلنا إلى اطلاعهم على حقيقة تصورنا وعمق وواقعية نهجنا . ولكى يكتسب خطابنا هذه الخاصية الملزمة ، لا بد من مراعاة واستيعاب عدة شروط :

أولاً : لا بد أن تتضح الرؤية لدى الدعاة لمنهج تغيير واقعى ، لا يصطدم بالثوابت الشرعية ولا بالسنن الكونية ، ولا يحكمه زمن معيَّن فى تحديد المراحل ، لأن ذلك مرتبط بإرادة الله ، وإنما الذى يحدد انتقالنا من مرحلة إلى أخرى ، ظهور وتحقق أهداف المرحلة التى نحن بصددها .

ثانياً : وفى سبيل التنهيج ، على خطابنا الدعوى الجماهيرى ، أو التربوى ، أن يكون مناسباً للواقع التى تعيشه الجماهير ، ولواقع المرحلة التى تمر بها الدعوة على المستوى العام ، ولقدرات وإمكانيات الدعاة ومَن يتلقون عنهم .

ثالثاً : وفى سبيل ما سبق ، من الضرورى عدم ضغط المراحل ، بمقتضياتها أو أهدافها .

رابعاً : ومن عدم الضغط فى المراحل ، لا بد من التدرج وخاصة و « أن التغيير الفجائى يُحْدِث فى الجسم الحى اضطراباً قد تكون له آثار سيئة على صحة الجسم ، والتدرجَ من الداء إلى العافية فى مراتب متعاقبة هو سُنَّة الله فى خلقه .

على أن هذا التدرج لا ينبغى أن يكون متروكاً للصدفة ، بل ينبغى أن ينتظم فى خطة مدروسة هى من أكبر مهمات الفكر الواقعى ، وتكون هذه الخطة ذات محورين متكاملين : تدرج فى استبدال الصورة الواحدة بالانتقال فيها من الأدنى إلى الأعلى حتى تبلغ التمام ، وتدرج فى استبدال مجموعة الصور بتقديم ما هو أصل على ما هو فرع تأسياً فى ذلك بالرسول الأكرم ﷺ حينما أنفق ثلاثة عشر عاماً فى معالجة العقيدة ، ثم انتقل إلى معالجة ما هو فرع لها من السلوك العملى » [1] .

خامساً : ومن عدم الضغط فى المراحل ، عدم ضغط أساليب التغيير ، فمن طور الحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والصفح مع المناصحة ، إلى إضافة لأساليب الأخذ القوى والأخذ على يد المعاندين فضلاً عن المتجبرين فى طور آخر.

ونجد أن بين التعامل من منطلق قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [2] ، ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [3] ، وبين التعامل من مقتضى قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [4] ، بون شاسع ، وطريق طويل ملئ بالانفعالات وأدوار من الصبر والابتلاء والبناء والانصهار .

سادساً : ومن التنهيج ، التأهل بالقدرات الأساسية للخطاب ، وخاصة فقه العلوم الشرعية ، وحتى يتجاوز خطابنا كثيراً من السطحية ، فى الحكم على الأشياء وفهم الأمور وتصورها ، ومن ثَمَّ القدرة على الاجتهاد للتفاعلات والوقائع ، وحتى نملك على الناس قلوبهم ونفوسهم ، لا بد من الإلمام بثقافة العصر ، وقبل ذلك ومعه ، الإلمام بضروب الحكمة وفصل الخطاب .

---

(١) دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية للدكتور عبد المجيد النجار .

(٢) آل عمران : ١٥٩ (٣) فصلت : ٣٤ (٤) الحج : ٣٩

سابعاً : ومن التنهيج أنه لا بد من استيعاب الواقع ودراسة العوامل النفسية والاجتماعية التى تحكم هذا الواقع . لكى نضع أيدينا على عمق الخلل ، واقدار الخير ، ومفاتيح الحوار ، وجاذبية الخطاب : « إن الواقع الإسلامى يشتمل على عنصرين أساسيين : عنصر هو الإنسان ، وعنصر هو المنهج الذى يسلكه ذلك الإنسان . فمعرفة الإنسان تكون بتحليل وفهم البنية النفسية والفكرية للإنسان المسلم فى عالم اليوم .... ، ومعرفة المنهج تكون بإدراك حقيقة ما يعمر أذهان المسلمين من قناعات فكرية وعقدية ، وإدراك حقيقة ما يجرى عليه سلوكهم من نظم فى شتّى المجالات ، لا بد على سبيل المثال أن نستوعب مقولة الجبر ، وظروف اعتناقها ، والأوضاع الاجتماعية والسياسية التى أحاطت بذلك الاعتناق » (١) .

ثامناً : ومن منهجية الخطاب ، التمييز بين الحق والباطل ، وكما يقول الدكتور عبد المجيد النجار : « والمجتمع الإسلامى اليوم لئن كان وريثاً لعهود الانحطاط إلا أنه حافظ على قدر من المبادئ الإسلامية وهى التى نهضت فيه الحركة لإصلاح المجتمع نفسه ، كما اتصل بالحضارة الغربية السائدة اليوم ، فاقتبس منها فى حياته العملية صوراً من الحق كما اقتبس صوراً من الفساد ، ولذلك فإنّه من الضرورى أن يتجه الفكر الواقعى إلى تمييز ما هو حق مما هو باطل حتى يكون الأول أرضية تثبت عليها الأقدام فى تغيير الثانى » (٢) .

لقد كان من عناصر الإثارة والتهييج ، محاولة رمى ممارسات المسلمين - الإسلامية - جملة بالخلل ، وبالرفض الجملى لواقع حياتهم ، وإشعارهم بأنهم قد قارفوا الكفر ، أو كادوا . وفى محاولة لإثارتهم على أنفسهم أو إثارة البعض على الكل . وبالتالى فلا حوار ، ولا التقاء فى منتصف الطريق ، وإما قبول الإسلام كلية ، أو تركه كلية .

تاسعاً : ومن التنهيج ، اعتماد منطق الحوار ، فى خطابنا ، وإتاحة الفرصة

(١) ، (٢) دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية - للدكتور عبد المجيد النجار .

للباطل بأن يدافع عن نفسه ، وتفريغ مبررات التمسك الكامنة بداخله ، وبالتالى اكتساب القدرة على إحلال الحق ، بإعطاء صور الحق الداحضة لهذا الباطل .

ولا بد أن ينسحب هذا الحوار مع الواقع ككل ، وكما لا بد - فى نفس الوقت - من إعداد النفس لتقديم البديل المناسب ، وحتى لا يكون منطقنا الحوارى تجريدياً أو صورياً ، عاجزاً عن تهيئة النفوس والعقول للمضى فى طريق الحق ، بعد إقناعهم بفساد واقعهم .

« إن الدعوة إلى التغيير دون تقديم للبديل من أكبر عوامل الفشل فى التغيير ، بل لعلها من أسباب التمسك بالواقع - إذ يقع فى نفوس مَن سيطر عليهم ذلك الواقع أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فتنشأ نزعة التبرير التى تسعى إلى إكساء الباطل شرعية الحق بمنطق الواقعية المنحرفة ، وذلك ضرب من ضروب دفاع الباطل عن نفسه استغلالاً لفطرة الإنسان التى تركن إلى ما هو معروف بمواصفاته الشخصية وتنفر مما هو مجهول أو ما هو معروف بمواصفاته العامة . ومن أكبر الأخطاء التى وقع فيها الفكر الإسلامى الإصلاحى الحديث أنه دعا إلى التغيير ولكنه لم يشخص البدائل التى يريد أن تسود حياة المسلم » [1] .

* باختصار ، فإنه لكى نوفق بين اكتمال التنزيل ، وحالة المجتمعات ، ومنهجية وواقعية الخطاب ، علينا أن نراعى عدة اعتبارات عند المتلقى فرداً كان أو جماعة :

أولاً : مراعاة درجة اكتمال الرشد والإدراك بأمر التنزيل عند المتلقى : « خاطِبُوا الناس على قدر عقولهم » .

ثانياً : مراعاة درجة الإذعان والامتثال للأمر الإلٰهى ، وبقدر القدرة على رفع مستوى ذلك الامتثال ، بقدر ما ندفع إليه بجملة جديدة من الأوامر والنواهى وضوابط الالتزام ، وذلك لن يتأتى إلا باعتماد عدة آليات مثل مبدأ التدرج ، وأفق الحوار ، وآليات الإقناع والحكمة والموعظة الحسنة .

---

(١) المرجع السابق .

ثالثاً : مراعاة درجة تخيل - المتلقى - إمكانية الإتيان بالفعل أو الامتناع عنه ولذلك شرعت القدوة وللتأسى بها فى إمكانية العمل والتطبيق « صلُّوا كما رأيتمونى أصلّى » ، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (١) ، وكذلك أهمية استفراغ الوسع فى تقديم البديل المناسب لتعبيد طاقات ورغبات الإنسان المتفرقة : « إنَّ فى ديننا فسحة » .

عاشراً : وأخيراً نأتى على شرط أساسى ، ألا وهو رأس الأعمال ، كما أنه بدونه لا جدوى من تحصيل ما سبق ، إذ لا بد من استيفاء الشروط الإيمانية ، والخصائص التى تضفى الربانية على الخطاب ، من ديمومة الصفاء ، وإشعاعات الإخلاص ، ونورانية التقوى ، وجاذبية الروحانية الاجتماعية ، مع فراسة المؤمن، وشفافية الملهم ، وقداسة المحراب .

قال تعالى : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (٢)

* * *

(١) الأحزاب : ٢١

(٢) سورة ص ١٧ - ٢٠ .

الخاتمة والتوصيات

نحو استراتيچية مُلِحَّة للدعوة الإسلامية

(ورقة عمل)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بعد الحمد لله ، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين ..

فى ختام هذه الدراسة ، يصبح من الضرورى ، ومن تمام العمل ، أن نضيف هذه التوصيات ، والتى هى بمثابة بنود لاستراتيچية ملحّة نقترحها للعاملين والمهمومين بالعمل الدعوى ، من أجل الخروج به من تلك المرحلة الحرجة التى يمر بها .

أحد عشر بنداً ، لاستراتيچية ضرورية ، نرى إلحاقها بهذه الدراسة ، وهى تتطلب فى نفس الوقت جهوداً ضخمة وكفاءات عالية وعملاً دؤوباً ، ووعياً متجرداً ، وتعاوناً متعانقاً ، ووسائل حيوية ، فَعَسَى ذلك أن ينال التوفيق من الله . وإلى خاتمة البحث وتوصيات الدراسة .

*   *

أولاً : مطلوب تصفية محاور التوتر فى الساحة الدعوية ، سواء الناشئ منها فى اتجاه التعامل مع السلطة ، أو العلاقة مع الآخر ، أو عن علاقة التيارات الإسلامية بعضها مع بعض . وقد أصبح السعى للعمل فى هذا الاتجاه مرتكزاً أساسياً من أجل إنجاح أيّة جهود ومساع أخرى ، بين يدى هذه الاستراتيچية .

ثانياً : استيعاب أبعاد موجة العداء العالَمية - العاتية - للوجود الإسلامى ولروح الصحوة واليقظة ، مما يستدعى نقاء الخطاب الدعوى من مقولات الاستعداء ومفاهيم الإثارة ، واستحضار الهَدْى النبوى الأصيل وذلك من خلال اعتماد الآتى :

(أ) الانتقال بمفهوم الدعوة من طَوْر التسخين لمعركة « ما » إلى طَوّر التبشير .

(ب) تقديم الاعتذار للآخر لاحتمال الجهل أو التصور الخاطئ أو توارث الحقد بغير تحقيق ، على الاعتقاد بمطلق العداء منهم والتآمر .

يقول البرفيسور « شريف ماردين » أستاذ الاجتماع فى جامعة واشنطن بأمريكا عن تصور الغرب للمسلمين : « إن الغربيين يتوارثون أفكاراً خاطئة عن الإسلام ، بل إن بعض هذه الأفكار يدرِّسونها فى برامجهم التعليمية ، وقد يكون واضعو هذه المناهج يهدفون إلى تشويه الإسلام ، وقد يكون ذلك بسبب جهلهم حقيقة الدين وتاريخه » (١) .

(جـ) القناعة بأن سلاح الكلمة والحوار هو أمضى الأسلحة فى هذا الوقت ، على الأقل لاستنقاذ المفتونين من أبناء الإسلام بشعارات الغرب إزاء اتهام المسلمين بإرهاب الفكر وبمصادرة حرية التفكير والاعتقاد .

(د) استحضار السلوك الحضارى للإسلام فى مواجهة خصومه ومَن هم على غير المِلّة من تاريخه الطويل ، إعلامياً وسلوكياً .

---

(١) فى مقابلة له مع « جريدة المسلمون » الأسبوعية بتاريخ ١٤١٣/٨/١٤ هـ .

ثالثاً : إعادة « الدعوة » إلى حضانة العلماء و « العلم الشرعى » ، أو إعادة العلماء إلى احتضان الدعوة واستشعار المسئولية التاريخية ، والبحث فى سبل إزالة هذه القطيعة بين العلماء وجمهور الصحوة من ناحية ، وبين العلماء وعامة جمهور الأمة من ناحية أخرى ، ولقد كان من الخطورة بمكان { أن بعض تيّارات الصحوة فى بعض البلدان قد طرحت نفسها بديلاً عن مؤسسات وعلماء الإسلام التقليدى ، ولم تكن تعنى وضعية البديل فى أغلب الحالات الحياد أو انعدام الصلة فحسب ، بل تعدّى ذلك إلى الخصومة وحتى العداء } [1] .

رابعاً : العمل على إذابة التعصب حول المذهبية الدعوية ، بدون المساس بالدور الإيجابى للحركات الإسلامية .

خامساً : كسر حاجز الحياد عند جماهير الأمة - مثقفين وعوام - من القضية الإسلامية ، وسواء نشأ هذا الحياد عن الجهل ، أو الانحراف فى التصور أو الاعتقاد ، أو لعوامل خارجية أو تربوية .

سادساً : مواجهة الفكر المخالف ، بدحض رواسب تيّارات التغريب والعلمنة ، وهذه فى الحقيقة المعركة الأساسية على أرض مجتمعات المسلمين اليوم ، وذلك مع مراعاة الآتى :

(أ) ارتباط هذا العامل بكثير من العوامل الأخرى .

(ب) ضرورة امتلاك المواجهة المكافئة فى هذه المرحلة ، فلن يجدى الهجوم المباشر فضلاً عن الأحكام الجاهزة ، بقدر المقارعة بالحجة والبرهان وقوة الجدال والحوار والتهيئة لهذه الأجواء ، مع مراعاة عدم نفى الإسلام عن رموز هذا الفكر واعتزازهم بالانتماء إليه ، ما لم يعلنوا ذلك بصراحة ، أو بقرينة شرعية قوية .

(جـ) أن حسم هذا الصّراع سيكون مرتبطاً بقدر التخلص من إرث هذا الفكر

---

(١) ما بين القوسين من مقال « مصالحة لا بد منها بين العلماء وجمهور الصحوة » لكاتبه الأستاذ جمال الطاهر بتاريخ ١٤١٣/٩/١٢ هـ - بجريدة المسلمون .

الكامن والمهيمن وبصفة أساسية على تفكير وسيكلوچية الجماهير ، وبعد أن تلونت به الدماء والعروق ، ولذلك فالمعركة ميدانها الأول أنفس الجماهير المسلمة ، ولذلك سيظل البحث فى سبل إعانتها على ارتياد الحق وكيفية التعامل به مقدَّم على مجرد تبيين وجه الحسن فى ذلك الحق .

سابعاً : تقويم الفكر الدينى فى محاوره الاجتهادية ، وتصفيته من محاور الانحراف والغلو والابتداع ، وفى صورها التنظيرية والتطبيقية .

وإن لاختيار لفظة « تقويم » دلالة خاصة ، تنعكس على كيفية معالجة الانحرافات الملتبسة بأصول دينية ، فلا تنقلب المعالجة إلى « صراع » كالمطلوب فى النقطة السابقة ، فيستعدى طوائف من المسلمين « المخلصين » فى أغلب الأحيان ، ولكن الأمر يحتاج هنا لمشرط طبيب يفصل به التراكمات الضارة الطارئة عن الأصول الإسلامية ، ومع مراعاة حساسية المريض ، ولا بأس بإدارة حركة المشرط على حسب عمق وخطورة التلوث .

ثامناً : فك الاشتباك المعقَّد بين المؤسسات العسكرية وبين الإسلاميين والدعاة [1]

---

(١) يقول الأستاذ غسان الإمام فى مقالة بعنوان « لعبة العسكر والأصولية » نشرت بالشرق الأوسط فى ١٩٩٣/٣/١٦ : « ولعل العَالم الخليجى يكاد يشكل مع الملكية المغربية الاستثناء الوحيد فى عالم عسكرى إسلامى . فالنظم السياسية المدنية لا العسكرية هى أداة الدفاع والحماية هنا . وهى نظم تستمد شرعيتها من تاريخية قديمة تعود أحياناً إلى عدة قرون ، وترتبط بحكم تشكيلها بتقليدية اجتماعية وسياسية محافظة .

وقد نجحت النظم الخليجية فى إقامة علاقة تواصل وترابط وتنسيق مع مجتمعاتها . وساعدتها الفورة النفطية على تحقيق تطور اقتصادى واجتماعى يصل إلى درجة الرخاء والرفاهية . وفى الوقت ذاته لم تتخل هذه النظم عن تقاليدها الإسلامية ذات الجذور العميقة فى النفس العربية الخليجية . ومن هنا فالمواجهة فى الخليج بين القوى العصرية ، والأصولية لا تأخذ طابع المواجهة العنيفة والدموية فى المجتمعات الإسلامية الأخرى . وتقوم الأنظمة الخليجية بحكمة ومهارة بدور الوسيط والميزان . فلا يختل الحوار لصالح هذه الكفة أو تلك فيتحول إلى صراع عنفى وفوضى اجتماعية » .

والبحث فى سبل استعادة العقلية العسكرية إلى حضانة الإسلام ، الدين والعقيدة والمنهج فى الحياة ، وذلك بعد استيعاب تاريخ هذه العلاقة وأسباب توترها ، ومدى الحاجة لتطوير الخطاب الدعوى من طور حتمية الخصام والمواجهة ، إلى استعادة أجواء المصالحة والحوار والثقة ، والتهيئة لتقبل الفكرة الإسلامية .

تاسعاً : تطوير آليات وأساليب الدعوة باعتماد :

(أ) الحوار بصفة أساسية على مختلف الساحات ومع جميع القوى والاتجاهات .

(ب) التعويل على الدراسات العلمية والمنهجية لمختلف قضايا الدعوة بدلاً من المعالجات العاطفية ، وبالانتقال من طور اعتماد العمل الإسلامى على الاجتهاد الفردى إلى الاجتهاد الجَماعى ، وذلك عند البتّ فى قضايا الدعوة وإشكالياتها المتجددة ، وذلك بالتوصية بأهمية إنشاء مراكز لدراسات وبحوث الدعوة .

(جـ) الحاجة الملحة فى { فى تقديم الإسلام للناس بصورة شاملة تتجاوز الأخطاء المرحلية والضغوط المذهبية والاتجاهات الذاتية بعيداً عن التركيز العقلى الذى يجعل الإسلام مجرد نظرية فلسفية ، وبعيداً عن التركيز الفقهى الذى يجعل الإسلام مجرد قانون من القوانين ، وبعيداً عن التركيز الوجدانى الذى يجعل الإسلام طريقة صوفية أو تجربة روحية شخصية سرعان ما تحفل بالبدع والخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان ، إلى غير ذلك من التركيزات والإسقاطات التى تفرض على الحقيقة الإسلامية ظلالاً خارجية لا تمت إلى صبغة الله المتوازنة بنسب ولا صلة } [1] .

عاشراً : الاستعانة والاستفادة بآليات علم الاجتماع فى نشر الدعوة .

---

(١) ما بين القوسين من كلام الدكتور عبد الحليم عويس ومن حوار معه لجريدة العالم الإسلامى فى ١٤١٣/٩/٢٨ هـ .

حادى عشر : الاهتمام بالحركة النسائية وتدعيم عطائها فى تصحيح الوعى الاجتماعى والقيام بالرسالة التربوية وتجنيبها محاور الصراع والتوتر بقدر الإمكان .

ولا يبقى بعد ذلك – بل يأتى فى المقدمة ، لكل الأعمال – الشرط الأساسى « وهو استحضار عزيمة الإخلاص والتجرد ، وهو شئ نثق بتوفره والحمد لله فى أغلب مَن اختاروا طريق الأنبياء : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وفى ختام هذه الدراسة المتواضعة ، أسأل الله عَزَّ وجَلَّ أن يجعلها عملاً متقبلاً وخالصاً لوجهه ، وأن تكون إسهاماً حقيقياً فى الحقل الدعوى وفى تلك الظروف الحرجة التى يمر بها العالم الإسلامى . واللّهم نصرك الذى وعدت .

٢٩ رمضان ١٤١٣ هـ (الموافق ٢٢ مارس سنة ١٩٩٣ م) .

بدوى الشيخ

* * *

---

(١) فصلت : ٣٣

محتويات الكتاب

* * *

رقم الإيداع : ٨٨٦٦ لسنة ٩٣

الترقيم الدولى

I.SB.N

٩٧٧ - ٢٢٥ - ٠٣٥ - ٧